ابن خلدون
مؤسس علم الاجتماع الحديث

اسم الكتاب : ابن خلـــدون

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران - دار الراوي

رقم الايداع : ١٥٤٩٨ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : ٠-١٠٤-٣٤٩-٩٧٧-٩٧٨

ابن خلدون

مؤسس علم الاجتماع الحديث

يوسف أبو الحجاج الأقصري



تقديم وعرض لابن خلدون

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعد:

هذا إصدار عن فليسوف عربى اثار جدالاً واسعا فى الأوساط الثقافية إنه بن خلدون ومعذرة للإطالة في هذه المقدمة التي لابد منها.

ولد ابن خلدون في تونس عام 1332 (732 للهجرة) بالدار الكائنة بنهج تربة الباي رقم 34. أسرة ابن خلدون أسرة علم وأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول، شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ، نزح أهله من الأندلس في منتصف القرن السابع الهجري، وتوجهوا إلى تونس، وكان قدوم عائلته إلى تونس خلال حكم دولة الحفصيين. يتعقب ابن خلدون أصوله إلى حضرموت وكان اسمه العائلي الحضرمي وذكر في موسوعته كتاب العبر المعروفة باسم " تاريخ ابن خلدون " أنه من سلالة الصحابي وائل بن حجر وأنّ أجداده من حضرموت.

اسمه عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون ابو زيد ولي الدين الحضرمى الاسبيرلى.

رحل ابن خلدون بعلمه إلى مدينة بسكرة حيث تزوج هناك، ثم توجه عام 1356 إلى فاس حيث ضمّه أبو عنان المريني إلى مجلسه العلمي واستعمله ليتولى الكتابة مؤرخًا لعهده وما به من أحداث، و قُدّر لابن

خلدون رحيلٌ آخر عام 1363 ميلادي إلى غرناطة و من ثمّ إلى إشبيلية ليعود بعد ذلك لبلاد المغرب، فوصل إلى قلعة ابن سلامة (مدينة تيارت الجزائرية حاليًا) فأقام بها أربعة أعوام و شرع في تأليف كتاب العبر وأكمل كتابته بتونس ثم رفع نسخة من كتابه لسلطان تونس، ملحقا أيّاها بطلب الرحيل إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ووجد ابن خلدون سفينة تستعد للعودة إلى الإسكندرية فركبها و توجه إلى القاهرة حيث قضى بقية حياته، و تولى هناك القضاء المالكي بمصر بوصفه فقيهًا متميزًا خاصة أنه سليل المدرسة الزيتونية العريقة وكان في طفولته قد درس بمسجد القبة الموجود قرب منزله سالف الذكر المسمى "سيد القبة". توفّي ابن خلدون في القاهرة سنة 1406م (808 هـ). ومن بين أساتذته الفقيه الزيتوني الإمام ابن عرفة حيث درس بجامع الزيتونة المعمور ومنارة العلوم بالعالم الإسلامي آنذاك.

يعتبر ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع وأوّل من وضعه على أسسه الحديثة، وقد توصل إلى نظريّات باهرة في هذا العلم حول قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها. وقد سبقت آراؤه ونظرياته ما توصّل إليه لاحقًا بعدّة قرون عددًا من مشاهير العلماء كالعالم الفرنسي وجست كونت.

عدد المؤرخون لابن خلدون عددا من المصنفات في التاريخ والحساب والمنطق غير أن من أشهر كتبه كتاب بعنوان: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو يقع في سبعة مجلدات وأولها المقدمة وهي المشهورة أيضا بمقدمة ابن خلدون، وتشغل من هذا الكتاب ثلثه، وهي عبارة عن مدخل

تقديم وعرض لابن خلدون

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعد:

هذا إصدار عن فليسوف عربى اثار جدالاً واسعا فى الأوساط الثقافية إنه بن خلدون ومعذرة للإطالة في هذه المقدمة التي لابد منها.

ولد ابن خلدون في تونس عام 1332 (732 للهجرة) بالدار الكائنة بنهج تربة الباي رقم 34. أسرة ابن خلدون أسرة علم وأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول، شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ، نزح أهله من الأندلس في منتصف القرن السابع الهجري، وتوجهوا إلى تونس، وكان قدوم عائلته إلى تونس خلال حكم دولة الحفصيين. يتعقب ابن خلدون أصوله إلى حضرموت وكان اسمه العائلي الحضرمي وذكر في موسوعته كتاب العبر المعروفة باسم " تاريخ ابن خلدون " أنه من سلالة الصحابي وائل بن حجر وأنّ أجداده من حضرموت.

اسمه عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون ابو زيد ولي الدين الحضرمى الاسبيرلى.

رحل ابن خلدون بعلمه إلى مدينة بسكرة حيث تزوج هناك، ثم توجه عام 1356 إلى فاس حيث ضمّه أبو عنان المريني إلى مجلسه العلمي واستعمله ليتولى الكتابة مؤرخًا لعهده وما به من أحداث، و قُدّر لابن

خلدون رحيلٌ آخر عام 1363 ميلادي إلى غرناطة و من ثمّ إلى إشبيلية ليعود بعد ذلك لبلاد المغرب، فوصل إلى قلعة ابن سلامة (مدينة تيارت الجزائرية حاليًا) فأقام بها أربعة أعوام و شرع في تأليف كتاب العبر وأكمل كتابته بتونس ثم رفع نسخة من كتابه لسلطان تونس، ملحقا أيّاها بطلب الرحيل إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ووجد ابن خلدون سفينة تستعد للعودة إلى الإسكندرية فركبها و توجه إلى القاهرة حيث قضى بقية حياته، و تولى هناك القضاء المالكي بمصر بوصفه فقيهًا متميزًا خاصة أنه سليل المدرسة الزيتونية العريقة وكان في طفولته قد درس بمسجد القبة الموجود قرب منزله سالف الذكر المسمى "سيد القبة". توفّي ابن خلدون في القاهرة سنة 1406م (808 هـ). ومن بين أساتذته الفقيه الزيتوني الإمام ابن عرفة حيث درس بجامع الزيتونة المعمور ومنارة العلوم بالعالم الإسلامي آنذاك.

يعتبر ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع وأوّل من وضعه على أسسه الحديثة، وقد توصل إلى نظريّات باهرة في هذا العلم حول قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها. وقد سبقت آراؤه ونظرياته ما توصّل إليه لاحقًا بعدّة قرون عددًا من مشاهير العلماء كالعالم الفرنسي وجست كونت.

عدد المؤرخون لابن خلدون عددا من المصنفات في التاريخ والحساب والمنطق غير أن من أشهر كتبه كتاب بعنوان: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو يقع في سبعة مجلدات وأولها المقدمة وهي المشهورة أيضا بمقدمة ابن خلدون، وتشغل من هذا الكتاب ثلثه، وهي عبارة عن مدخل

موسع لهذا الكتاب وفيها يتحدث ابن خلدون ويؤصل لآرائه في الجغرافيا والعمران والفلك وأحوال البشر وطبائعهم والمؤثرات التي تميز بعضهم عن الآخر.

واعتزل ابن خلدون الحياة بعد تجارب مليئة بالصراعات والحزن على وفاة أبويه وكثير من شيوخه إثر وباء الطاعون الذي انتشر في جميع أنحاء العالم سنة 749هجرية (1323م) وتفرغ لأربعة سنوات في البحث والتنقيب في العلوم الإنسانية معتزلا الناس في سنوات عمره الأخيرة، ليكتب سفره أو ما عرف بمقدمة ابن خلدون ومؤسسا لعلم الاجتماع بناء على الاستنتاج والتحليل في قصص التاريخ وحياة الإنسان. واستطاع بتلك التجربة القاسية أن يمتلك صرامة موضوعية في البحث والتفكير.

ابتكر ابن خلدون وصاغ فلسفة للتاريخ هي بدون شك أعظم ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العصور والأمم.

كانت مكانة عائلته الاجتماعية قد مكنته من الدراسة على يد أفضل المدرسين في المغرب الكبير. تلقى علم التربية الإسلامية الكلاسيكية، ودرس القرآن الكريم الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، واللسانيات العربية، وأساس فهم القرآن، الحديث، الشريعة (القانون) والفقه علم التاريخ.

لقد تجمعت في شخصية ابن خلدون العناصر الأساسية النظرية والعملية التي تجعل منه مؤرخا حقيقيا - رغم أنه لم يول في بداية حياته الثقافية عناية خاصة بمادة التاريخ - ذلك أنه لم يراقب الأحداث والوقائع عن بعد كبقية المؤرخين، بل ساهم إلى حد بعيد ومن موقع

المسؤولية في صنع تلك الأحداث والوقائع خلال مدة طويلة من حياته العملية تجاوزت 50 عاما، وضمن بوتقة جغرافية امتدت من الأندلس وحتى بلاد الشام. فقد استطاع، ولأول مرة، (إذا استثنينا بعض المحاولات البسيطة هنا وهناك) أن يوضح أن الوقائع التاريخية لا تحدث بمحض الصدفة أو بسبب قوى خارجية مجهولة، بل هي نتيجة عوامل كامنة داخل المجتمعات الإنسانية. لذلك انطلق في دراسته للأحداث التاريخية من الحركة الباطنية الجوهرية للتاريخ. فعلم التاريخ، وان كان (لايزيد في ظاهره عن أخبار الأيام والدول) انما هو (في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، لذلك فهو أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق(المقدمة). فهو بذلك قد اتبع منهجا في دراسة التاريخ يجعل كل أحداثه ملازمة للعمران البشري وتسير وفق قانون ثابت.

يقول: "فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لايمكن أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهان لا مدخل للشك فيه، وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه.»

وهكذا فهو وان لم يكتشف مادة التاريخ فانه جعلها علما ووضع لها فلسفة ومنهجا علميا نقديا نقلاها من عالم الوصف السطحي والسرد

غير المعلل إلى عالم التحليل العقلاني والأحداث المعللة بأسباب عامة منطقية ضمن ما يطلق عليه الآن بالحتمية التاريخية، وذلك ليس ضمن مجتمعه فحسب، بل في كافة المجتمعات الإنسانية وفي كل العصور، وهذا ما جعل منه أيضا وبحق أول من اقتحم ميدان ما يسمى بتاريخ الحضارات أو التاريخ المقارن. "إني أدخل الأسباب العامة في دراسة الوقائع الجزئية، وعندئذ أفهم تاريخ الجنس البشري في إطار شامل. اني ابحث عن الأسباب والأصول للحوادث السياسية كذلك قولهداخلا من باب الأسباب على العموم على الأخبار الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا وأعطي الحوادث علة أسبابا .»

ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع أو علم العمران البشري. وقد ذكر في كتاب مقدمة ابن خلدون: « . وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا ."، وهو علم مستقل بنفسه موضوعه العمران البشري والاجتماع، ويهدف إلى "بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أم عقليا وأعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة، أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص. وكأنه علم مستبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة.

لقد قاد المنهج التاريخي العلمي الذي اتبعه ابن خلدون إلى التوصل إلى علم الاجتماع، وهذا المنهج يرتكز على أن كل الظواهر الاجتماعية ترتبط ببعضها البعض، فكل ظاهرة لها سبب وهي في ذات الوقت سبب للظاهرة التي تليها. لذلك كان مفهوم العمران البشري عنده يشمل كل الظواهر سواء كانت سكانية أو ديمغرافية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية

أو ثقافية. فهو يقول في ذلك: «فهو خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة هذا العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن الكسب والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.» ويناقش أيضا نظرية التطور لدى داروين وان لم يغص فيها. ثم يأخذ في تفصيل كل تلك الظواهر مبينا أسبابها ونتائجها، مبتدئا بإيضاح أن الإنسان لا يستطيع العيش بمعزل عن أبناء جنسه حيث: "ان الاجتماع الإنساني ضروري فالإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية. وهو معنى العمران.

يناقش ابن خلدون العمران البشري بشكل عام مبينا أثر البيئة في البشر وهو مايدخل حاليا في علم الاتنولوجيا والانثروبولوجيا، ويتطرق لأنواع العمران البشري تبعا لنمط حياة البشر وأساليبهم الإنتاجية قائلا: «ان اختلاف الأجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم في المعاش.» مبتدئا بالعمران البدوي باعتباره أسلوب الإنتاج الأولي الذي لا يرمي إلى الكثير من تحقيق ما هو ضروري للحياة: « .ان أهل البدو المنتحلون للمعاش الطبيعي. وانهم مقتصرون على الضروري الاقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد.»

ثم يخصص الفصل الثالث من المقدمة للدول والملك والخلافة ومراتبها وأسباب وكيفية نشوئها وسقوطها، مؤكدا أن الدعامة الأساسية للحكم تكمن في العصبية. والعصبية عنده أصبحت مقولة اجتماعية احتلت مكانة بارزة في مقدمته حتى اعتبرها العديد من المؤرخين مقولة خلدونية بحتة، وهم محقون في ذلك لأن ابن خلدون اهتم بها

اهتماما بالغا إلى درجة أنه ربط كل الأحداث الهامة والتغييرات الجذرية التي تطرأ على العمران البدوي أو العمران الحضري بوجود أو فقدان العصبية. كما أنها في رأيه المحور الأساسي في حياة الدول والممالك. ويطنب ابن خلدون في شرح مقولته تلك، مبينا أن العصبية نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا، ذلك أنها تتولد من النسب والقرابة وتتوقف درجة قوتها أو ضعفها على درجة قرب النسب أو بعده. ثم يتجاوز نطاق القرابة الضيقة المتمثلة في العائلة ويبين أن درجة النسب قد تكون في الولاء للقبيلة وهي العصبية القبلية.. ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نصرة كل أحد من أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس في اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء...أما إذا أصبح النسب مجهولا غامضا ولم يعد واضحا في أذهان الناس، فإن العصبية تضيع وتختفي هي أيضا. بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح انتفت النعرة التي تحمل هذه العصبية، فلا منفعة فيه حينئذ. هذا ولا يمكن للنسب أن يختفي ويختلط في العمران البدوي، وذلك أن قساوة الحياة في البادية تجعل القبيلة تعيش حياة عزلة وتوحش، بحيث لا تطمح الأمم في الاختلاط بها ومشاركتها في طريقة عيشها النكداء، وبذلك يحافظ البدو على نقاوة أنسابهم، ومن ثم على عصبيتهم.

. الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر. وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء الموطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة. فصار لهم ألفا وعادة، وربيت فيهم أجيالهم. فلا ينزع إليهم أحدا من الأمم أن يساهم في

حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال. فيؤمن عليهم لأجل ذلك منت اختلاط انسابهم وفسادها....أما إذا تطورت حياتهم وأصبحوا في رغد العيش بانضمامهم إلى الأرياف والمدن، فإن نسبهم يضيع حتما بسبب كثرة الاختلاط ويفقدون بذلك عصبيتهم.... ثم يقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت، فدثرت العصبية مدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان.وهكذا نخلص للقول في هذا الصدد بأن العصبية تكون في العمران البدوي وتفقد في العمران الحضري.

بعد أن تعرض ابن خلدون لمفهوم العصبية وأسباب وجودها أو فقدانها، انتقل إلى موضوع حساس وهام، مبينا دور العصبية فيه، ألا وهو موضوع "الرئاسة" الذي سيتطور في (العمران الحضري) إلى مفهوم الدولة. فأثناء مرحلة "العمران البدوي" يوجد صراع بين مختلف العصبيات على الرئاسة ضمن القبيلة الواحدة، أي ضمن العصبية العامة حيث: (.ان كل حي أو بطن من القبائل، وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد، لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص، ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام، والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة). ومن هنا ينجم التنافس بين مختلف العصبيات الخاصة على الرئاسة، تفوز فيه بطبيعة الحال العصبة الخاصة الأقوى التي تحافظ على الرئاسة إلى أن تغلبها عصبة خاصة أخرى وهكذا.(.ولما

كانت الرئاسة انما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبة ذلك النصاب (أي أهل العصبية الخاصة) أقوى من سائر العصبيات ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبة، ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص).

يحدد ابن خلدون مدة وراثة الرئاسة ضمن العصبية القوية بأربعة أجيال على العموم، أي بحوالي 120 سنة في تقديره.(ذلك بأن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي سبب كونه وبقائه، وبعده ابن مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذ عنه، إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعاين له ثم إذى جاء الثالث كان حظه في الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن أمر ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولاتكلف، وإنما هو أمر واجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصبية. واعتبار الأربعة من الأجيال الأربعة بان ومباشر ومقلد وهادم).وبذلك ينهي ابن خلدون نظريته المتعلقة باسلطة أثناء مرحلة (العمران البدوي) ويخلص إلى نتيجة أن السلطة في تلك المرحلة مبنية أساسا على العصبية بحيث لا يمكن أن تكون لها قائمة بدونها.

وانطلاقا من نظريته السابقة المتعلقة بدور العصبية في الوصول إلى الرئاسة في المجتمع البدوي، واصل ابن خلدون تحليله على نفس النسق فيما يتعلق بالسلطة في المجتمع الحضري مبينا أن العصبية الخاصة بعد استيلائها على الرئاسة تطمح إلى ما هو أكثر، أي إلى فرض سيادتها على قبائل أخرى بالقوة، وعن طريق الحروب والتغلب

للوصول إلى مرحلة المُلك (. وهذا التغلب هو الملك، وهو أمر زائد على الرئاسة. فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها). معتمدا في تحقيق ذلك أساسا وبالدرجة الأولى على العصبية حيث أن (الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك). فهذه اذن المرحلة الأولى في تأسيس الملك أو الدولة. وهي مرحلة لا تتم إلا من خلال العصبية.

بالوصول إلى تلك المرحلة يبدأ (العمران الحضري) شيئا فشيئا وتصبح السلطة الجديدة تفكر في تدعيم وضعها آخذة بعين الاعتبار جميع العصبيات التابعة لها، وبذلك فانها لم تعد تعتمد على عامل النسب بل على عوامل اجتماعية وأخلاقية جديدة، يسميها ابن خلدون (الخلال). هنا تدخل الدولة في صراع مع عصبيتها، لأن وجودها أصبح يتنافي عمليا مع وجود تلك العصبية التي كانت في بداية الأمر سببا في قيامها، (يتراءى لنا مبدأ نفي النفي في المادية الجدلية إضافة رابط المادية الجدلية ان وجد). ومع نشوء يتخطى الملك عصبيته الخاصة، ويعتمد على مختلف العصبيات. وبذلك تتوسع قاعدة الملك ويصبح الحاكم أغنى وأقوى من ذي قبل، بفضل توسع قاعدة الضرائب من ناحية، والأموال التي التي تدرها الصناعات الحرفية التي التي تنتعش وتزدهر في مرحلة (العمران الحضري) من ناحية أخرى.

ولتدعيم ملكه يلجأ إلى تعويض القوة العسكرية التي كانت تقدمها له العصبية الخاصة أو العامة(القبيلة) بإنشاء جيش من خارج عصبيته، وحتى من عناصر أجنبية عن قومه، وإلى اغراق رؤساء قبائل البادية بالأموال، وبمنح الإقطاعات كتعويض عن الامتيازات السياسية التي

فقدوها. وهكذا تبلغ الدولة الجديدة قمة مجدها في تلك المرحلة، ثم تأخذ في الانحدار حيث أن المال يبدأ في النفاذ شيئا فشيئا بسبب كثرة الإنفاق على ملذات الحياة والترف والدعة. وعلى الجيوش ومختلف الموظفين الذين يعتمد عليهم الحكم. فيزيد في فرض الضرائب بشكل مجحف، الشئ الذي يؤدي إلى إضعاف المنتجين، فتتراجع الزراعة وتنقص حركة التجارة، وتقل الصناعات، وتزداد النقمة وبذلك يكون الحكم قد دخل مرحلة بداية النهاية، أي مرحلة الهرم التي ستنتهي حتما بزواله وقيام ملك جديد يمر بنفس الأطوار السابقة التي يجملها ابن خلدون في خمسة أطوار.

الطور الأول طور الظفر بالبغية، وغلب المدافع والممانع، والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها .فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة بقومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب، وهي لم تزل بعد بحالها.

الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة .ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك، لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه .فهو يدافعهم عن الأمر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم أن بخلصوا إليه حتى يقر الأمر في نصابه

الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فسيتفرغ

وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج، وإحصاء النفقات والقصد فيها، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة، والامصار المتسعة، والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشرف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله. هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه، واعتراض جنوده وادرار ارزاقهم وانصافهم في اعطياتهم لكل هلال، حتى يظهر أثر ذلك عليهم ذلك في ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة.وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد

الطور الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما أولوه سلما لأنظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من سلفه. ويرى أن الخروج عن تقليده فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده.

الطور الخامس طور الإسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها، ولايعرفون ما يأتون ويذرون منها، مستفسدا لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه، حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته، مضيعا من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواتهم. وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه.أي أن تنقرض. (المقدمة) واذن فان تحليل ابن خلدون بولادة ونمو وهرم الدولة هو ذو أهمية بالغة، لأنه ينطلق من دراسة الحركة الداخلية للدولة المتمثلة في العصبية، تلك المقولة الاجتماعية والسياسية التي تعتبر محور كل

المقولات والمفاهيم الخلدونية. فقد اعتمد عليها اعتمادا أساسيا في دراسته الجدلية لتطور المجتمعات الإنسانية(العمران البشري) وكأنه يبشر منذ القرن الرابع عشر بما اصطلح على تسميته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ب (المادية الجدلية). وفي غمرة انطلاقت العلمية الرائعة الرائدة وضع إصبعة على العصب الحساس والرئيسي، وان لم يكن الوحيد في تطور (العمران البشري) ألآ وهو الاقتصاد.

ان النتيجة التي توصل إليها ابن خلدون في الفصل الثاني من مقدمته عند بحثه للعمران البدوي وهي: (ان اختلاف الأجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلهم من المعاش) قادته بالضرورة إلى دراسة عدة مقولات اقتصادية تعتبر حجر الزاوية في علم الاقتصاد الحديث، مثل دراسة الأساليب الإنتاجية التي تعاقبت على المجتمعات البشرية، وانتقال هذه الأخيرة من البداوة إلى الحضارة، أي من الزراعة إلى الصناعة والتجارة: (.وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش. أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات.وأما الصناعة فهي ثانيها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكارو الأنظار، ولهذا لا توجد غالبا إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه).

يركز ابن خلدون على الصناعة جاعلا منها السبب الأساسي في الازدهار الحضاري يقول: (ان الصنائع انما تكتمل بكمال العمران الحضري وكثرته. ان رسوخ الصنائع في الأمصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها). كما تناول مقولة تقسيم العمل بالتأكيد على أن(النوع الإنساني لا يتم وجوده الا بالتعاون)، لعجز الإنسان عن تلبية

جميع حاجاته مهما كانت قدرته بمفرده، حيث أن (الصنائع في النوع الإنساني كثيرة بكثرة الأعمال المتداولة في العمران. فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد.(مثل) الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة والتوليد والوراقة والطب.) أما القيمة فهي في نظره (قيمة الأعمال البشرية):فأعلم أن ما يفيد الإنسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله.إذ ليس هناك الا العمل، مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر، وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به، إذ لولا العمل لم تحصل قيمتها.فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها انما هي قيم الأعمال الإنسانية). ولم يغفل أيضا عن مقولة (القيمة الزائدة) وان لم يعالجها بشكل معمق عند تعرضه لصاحب الجاه:(وجميع ما شأنه ان تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيه الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه، فهو بين قيم للأعمال يكتسبها، وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها، فتتوفر عليها، والأعمال لصاحب الجاه كبيرة، فتفيد الغني لأقرب وقت، ويزداد مع مرور الأيام يسارا وثروة). من كل ما تقدم نستطيع المجازفة والقول إن أعمال ابن خلدون وبالذات

ويرفض ابن خلدون تدخل الدولة المباشر في الإنتاج والتجارة لما يترتب عليه من أضرار اقتصادية. فهو يرى أن حاجة الدولة لتغطية نفقاتها المتزايدة تدفعها نحو هذا التدخل ولكن النتيجة حينئذ تكون بعكس القصد. يكتب ابن خلدون "اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها

على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا وتارة بالزيادة في ألقاب (معدلات؛ أسعار) المكوس إن كان قد استحدث من قبل، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك (امتصاص) عظامهم، لما يرون أنهم قد حصلوا على شئ طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان (المحاسبون)، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية (باسم الجباية)، لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال. فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق، ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد. غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة". مما تقدم يبين لنا أن مقدمة ابن خلدون تعتبر أول موسوعة في العلوم الإنسانية، بل هي باكورة العمل الموسوعي العام قبل ظهور عصر الموسوعات بحوالي خمسة قرون.

ويعتبر ابن خلدون من أوائل العلماء الذين أشاروا للشبه بين القردة والإنسان حيث يقول في مقدمته: "ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج: آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات من الحشائش وما لا بذر له؛ وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج

التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية، ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا».

ويرى ابن خلدون في المقدمة أن الفلسفة من العلوم التي استحدثت مع انتشار العمران، وأنها كثيرة في المدن ويعرفها قائلا: بأن قوما من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي، تدرك أدواته وأحواله، بأسبابها وعللها، بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل، وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة. فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق. ويحذر ابن خلدون الناظرين في هذا العلم من دراسته قبل الاطلاع على العلوم الشرعية من التفسير والفقه، فيقول: ,وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلومن علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها'.

لعل ابن خلدون وابن رشد اتفقا على أن البحث في هذا العلم يستوجب الإلمام بعلوم الشرع حتى لا يضل العقل ويتوه في مجاهل الفكر المجرد لأن الشرع يرد العقل إلى البسيط لا إلى المعقد وإلى التجريب لا إلى التجريد. ومن هنا كانت نصيحة هؤلاء العلماء إلى دارسي الفلسفة أن يعرفوا الشرع والنقل قبل أن يمعنوا في التجريد العقلي.

لقد امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه على ما كتبه القدامى على أحوال

البشر وقدرته على استعراض الآراء ونقدها، ودقة الملاحظة مع حرية في التفكير وإنصاف أصحاب الآراء المخالفة لرأيه. وقد كان لخبرته في الحياة السياسية والإدارية وفي القضاء، إلى جانب أسفاره الكثيرة من موطنه الأصيل تونس وبقية بلاد شمال أفريقيا إلى بلدان أخرى مثل مصر والحجاز والشام، أثر بالغ في موضوعية وعلمية كتاباته عن التاريخ وملاحظاته.

بسبب فكر ابن خلدون الدبلوماسي الحكيم، أرسل أكثر من مرة لحل نزاعات دولية، فقد عينه السلطان محمد بن الأحمر سفيرا إلى أمير قشتالة لعقد الصلح وبعد ذلك بأعوام، استعان أهل دمشق به لطلب الأمان من الحاكم المغولي تيمور لنك، والتقوا بالفعل.

وكان له مساهمة فعالة في علم التربية والذي لم يكن معروفا كعلم أكاديمي مستقل مثل اليوم، وقد عملت دراسات كثيرة حول فكرة التربوي، ويمكن إجمال أفكاره التربوية في التالي:

أن العلم ينقسم إلى علمين علم نقلي وعلم عقلي.

التدرج في التعليم.

البدء بالمحسوسات والتدرج حتى الملموسات.

يكون تعليم الصبي بداية بعض سور القرآن الكريم وبعض الأشعار حتى تقوى ملكة الحفظ.

وكثير من الكتاب الغربيين وصفو تقديم ابن خلدون للتاريخ بأنه أول تقديم لا ديني للتأريخ، وهو له تقدير كبير عندهم. ربما تكون ترجمة حياة ابن خلدون من أكثر ترجمات شخصيات التاريخ الإسلامي توثيقا بسبب المؤلف الذي وضعه ابن خلدون ليؤرخ لحياته وتجاربه ودعاه

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا. تحدث ابن خلدون في هذا الكتاب عن الكثير من تفاصيل حياته المهنية في مجال السياسة والتأليف والرحلات، ولكنه لم يضمنها كثيرا تفاصيل حياته الشخصية والعائلية.

كان شمال أفريقيا أيام ابن خلدون بعد سقوط دولة الموحدين تحكمه ثلاث أسر: المغرب كان تحت سيطرة المرينيين (1196-1464)، غرب الجزائر كان تحت سيطرة آل عبد الودود (1236-1556)، تونس وشرق الجزائر وبرقة تحت سيطرة الحفصيين (1228-1574). التصارع بين هذه الدول الثلاثة كان على أشده للسيطرة ما أمكن من المغرب الكبير ولكن تميزت فترة الحفصيين بإشعاع ثقافي باهر. وكان المشرق العربي في أحلك الظروف آنذاك يمزقه التتار والتدهور.

لقد كان ابن خلدون دبلوماسيا حكيما أيضا. وقد أرسل في أكثر من وظيفة دبلوماسية لحل النزاعات بين زعماء الدول: مثلا، عينه السلطان محمد بن الأحمر سفيرا له إلى أمير قشتالة للتوصل لعقد صلح بينهما وكان صديقا مقربا لوزيره لسان الدين ابن الخطيب كان وزيرا لدى أبي عبد الله الحفصي سلطان بجاية، وكان مقربا من السلطان أبي عنان المرينى قبل أن يسعى بينهما الوشاة. وبعد ذلك بأعوام استعان به أهل دمشق لطلب الأمان من الحاكم المغولي القاسي تيمورلنك، وتم اللقاء بينهما. وصف ابن خلدون اللقاء في مذكراته. إذ يصف ما رآه من طباع الطاغية، ووحشيته في التعامل مع المدن التي يفتحها، ويقدم تقييما متميزا لكل ما شاهد في رسالة خطها لملك المغرب الخصال الإسلامية لشخصية ابن خلدون، أسلوبه الحكيم في التعامل مع تيمور لنك مثلا،

وذكائه وكرمه، وغيرها من الصفات التي أدت في نهاية المطاف لنجاته من هذه المحنة، تجعل من التعريف عملا متميزا عن غيره من نصوص أدب المذكرات العربية والعالمية. فنحن نري هنا الملامح الإسلامية لعالم كبير واجه المحن بصبر وشجاعة وذكاء ولباقة. ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع.

تمنياتي بقراءة ممتعة والله الموفق والمستعان

المؤلف

الجزء الأول

إبن خلدون
(موجز سيرته وحياته)

(1)

بطاقة تعارف

الاسم:- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون أبوزيد ولى الدين الحضرمى الاشيدلى

تاريخ الميلاد:- الأربعاء 1 رمضان 732 هـ الموافق 27 مايو 1332م.

مكان الميلاد:- نهج تربة الباى - تونس.

الوفاة:- الجمعة 28 رمضان 808هـ الموافق 19 مارس 1406.

مكان الوفاه: مدينة القاهرة - مصر.

الموطن:- تونس.

العرق:- عربى.

الديانة:- مسلم - سنى.

المذهب:- المالكى.

المدرسة الأم:- جامعة الزيتونة.

المهنة:- مؤرخ - قاضى - فليسوف - عالم اجتماع - كاتب سيرة ذاتية.

أشهر مؤلفاته:- المقدمة - العبر - المتبدأ والخبر فى معرفة أيام العرب - لباب المحصل فى أصول الدين - مذكراته (رحلات ابن خلدون).

(1)

بطاقة تعارف

الاسم:- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون أبوزيد ولى الدين الحضرمى الاشيدلى

تاريخ الميلاد:- الأربعاء 1 رمضان 732 هـ الموافق 27 مايو 1332م.

مكان الميلاد:- نهج تربة الباى - تونس.

الوفاة:- الجمعة 28 رمضان 808هـ الموافق 19 مارس 1406.

مكان الوفاه: مدينة القاهرة - مصر.

الموطن:- تونس.

العرق:- عربى.

الديانة:- مسلم - سنى.

المذهب:- المالكى.

المدرسة الأم:- جامعة الزيتونة.

المهنة:- مؤرخ - قاضى - فليسوف - عالم اجتماع - كاتب سيرة ذاتية.

أشهر مؤلفاته:- المقدمة - العبر - المتبدأ والخبر فى معرفة أيام العرب - لباب المحصل فى أصول الدين - مذكراته (رحلات ابن خلدون).

(2)
التعريف بابن خلدون

التعريف بابن خلدون

هو مفكر عربى إسلامى ولد فى تونس وشبا فيها وتخرج فى جامعة الزيتونة ولىَّ الكتابة والفكر بين الملوك فى بلاد المغرب والأندلس ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان برقوق قضاء المالكية، ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من أهم المصادر للفكر العالمى ومن أشهرها كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر فى معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان وهو المسمى بتاريخ ابن خلدون وأيضا (مقدمة ابن خلدون) الزائعة الصيت.

وكما يقول علماء الاجتماع فالإنسان ابن بيئته تصنعه وتشكله وتلقى بظلالها على أفكاره ورؤيته للحياة،ولم يكن (ابن خلدون) استثناء من ذلك، فقد ظهر فى عصر كانت الحضارة الإسلامية مازالت فيه قادرة على العطاء والإضافة للإنجازات الانسانية، رغم أنها كانت فى بدء مرحلة الأفول.

هذا الوضع المملوء بالتناقض والمشحون بالصراعات كانت سمة العصر الذى نشأ فيه ابن خلدون والذى يمكن تلمس أثره بشكل واضح فى سيرة حياته وإنجازه العلمى، ويمكن التعريف به من خلال النقاط الآتية:

(3)
أصوله وعائلته والمناخ السياسى الذى عاش فيه

اشتهر مؤلف المقدمة بين الناس وفى بيئات العلم والأدب باسم (ابن خلدون) ولكن اسمه الفعلى كان (عبدالرحمن)، واسم والده (محمد) وأما تلقيبه بلقب (ابن خلدون) فكان نسبة إلى أحد أجداده القدماء، خلد المعروف بخلدون وهو الجد الذى دخل الأندلس مع جند اليمانية قبل ولادة مؤلفا المقدمة بمدة لا تقل عن أربعة قرون.

هكذا ينتمى (ابن خلدون) إلى أسرة عريقة من يمن حضرموت، وكان جده الأعلى (خالد) المعروف بخلدون من بين القادة العسكريين الذين شاركوا فى فتح الأندلس تحت قيادة (طارق بن زياد) فى سنة 92هـ (711م)، ومنذ هذا التاريخ استقرت أسرته فى مدينة أشبيلية وأصبحت من أكثر الأسر العربية نفوذًا وثروة ومكانة اجتماعية، حتى أنها خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) كانت تتقاسم حكم هذه المدينة ومنطقتها مع أسرة يمنية أخرى هى (بنو حجاج) وقد عرف من بين أفراد (بنى خلدون) عدد كبير من رجالات السياسة والمشاركة فى النشاط الاجتماعى والعلمى على طول القرون التالية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، حينما ألحت القوى المسيحية الإسبانية على الأندلس بالحملات العسكرية، فسقطت فى أيديهم المدن الكبرى مثل قرطبة وغيرها.

وحينئذ رأى أعلام أسرة (بنى خلدون) أن يهاجروا من وطنهم إلى

المغرب، فسكنوا مدينة سبته لفترة قصيرة، ومنها انتقلوا إلى تونس التى كانت تحكمها دولة الحفصيين، وكان من أوائل هؤلاء المهاجرين (محمد) جد (ابن خلدون) المباشر، الذى تولى بعض المناصب الكبرى لسلطان تونس، وأما أبوه (محمد) فقد آثر الاشتغال بالعلم بعيدًا عن السياسة.

- ولد (عبدالرحمن بن خلدون) فى سنة 732هـ (1332م)، ووجهه أبوه لطلب العلم منذ صباه المبكر، فحضر مجالس علماء تونس الذين كان منهم كثيرون من مهاجرى الأندلس، حيث تعلم وحفظ القرآن وهو يافع على يد الشيخ (ابى عبدالله محمد بن العربى الحصايرى) و(عبدالله محمد بن الشواش الزرزالى)، وقرأ الحديث على الشيخ (شمس الدين أبى عبدالله محمد بن جابرى) وأخذ الفقه عن (أبى عبدالله بن محمد بن عبدالله الجيانى) وغيره، ولازم آخرين أخذ عنهم العلوم العقلية مثل (أبى عبدالله محمود بن إبراهيم الآبلى) الذى أخذ عنه المنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، حيث لازمه (ابن خلدون) لمدة ثلاث سنوات بعد وفاة والديه فى 749هـ الطاعون الجارف الذى عم البلاد آنذاك.

كما واصل (عبدالرحمن بن خلدون) حضوره مجالس العلم على يد نخبة من كبار الأساتذة الذين رافقوا السلطان المغربى (أبا الحسن المرينى) فى غزوته لتونس سنه 748هـ، وحينما عاد الكثيرون من هؤلاء إلى المغرب قرر (عبدالرحمن) أن يلحق بهم هناك لكى يستكمل تكوينه العلمى معهم.

وقد بدأ (ابن خلدون) حياته العملية مبكرًا، فقد عمل وهو فى تونس مع (محمد بن تافراكين) حاكمها فى عام 752 ككاتب للعلامة أو المسئول عن وضع توقيع وختم السلطان على المراسيم التى يصدرها،

وهو فى نحو العشرين من عمره، وهكذا جمع ين طلب العلم والاشتغال بالسياسة، وفى فاس استدعاه السلطان المرينى (أبوعنان فارس) لكى يتولى الكتابة له، فعمل فى خدمته مدة منذ آخر سنة 756هـ، حيث ضمه السلطان إلى هيئة علمائه التى تبحث فى المسائل الدينية والنحوية بحضرة السلطان، ثم عينه بعد ذلك أمينا لشئونه (سكرتيرًا) واستغل (ابن خلدون) وجوده فى فاس فى النظر والقراءة والتعلم من كبار الشيوخ والعلماء من أهل المغرب والأندلس الوافدين على فاس بغرض السفارة أو الزيارة.

إلا أنه نتيجة لوشاية اتهم بالتحالف مع الأمير (محمد) صاحب ولاية بجاية السابق، والتآمر ضد السلطان (أبى عنان) الذى أصدر أوامره بالقبض عليه، ولم يفرج عن (ابن خلدون) إلا الوزير (الحسن بن عمر) الذى قام بأعمال الدولة بعد وفاة السلطان (أبى عنان) عام 759هـ، وحينما خرج أهل مرين على الوزير (الحسن بن عمر) انضم لهم (ابن خلدون) وعمل كاتبا لدى أميرهم (أبوسالم) فى عام 760، واستمر على هذا لمدة أربع سنوات، توجه بعدها فى عام 765هـ إلى السلطان (محمد الخامس الغنى بالله) (أبى عبدالله محمد بن يوسف بن نصر) ثامن ملوك بنى الأحمر فى غرناطة، وكان قد تعرف عليه حينما خلع عن عرشه ونفى إلى المغرب ما بين سنتى 759 و761هـ ، وانعقدت بينه وبين السلطان الأندلسى ووزيره (لسان الدين بن الخطيب) علاقة صداقة، دفعت فيما بعد (عبدالرحمن بن خلدون) إلى الرحيل إلى غرناطة، حينما استرد السلطان (محمد الخامس) عرشه حيث احتفل به السلطان ووزيره، وقدرا له كفاءته السياسية، ومكنته إقامته

فى المغرب طوال تلك السنوات من الاطلاع على أحوال هذه البلاد السياسية وعلاقتها بدول الجوار فى شمال أفريقيا وفى الأندلس، لهذا قرر السلطان (أبوعبدالله محمد بن يوسف بن نصر) إرساله فى سفارة إلى ملك قشتالة المسيحية، لكى يعقد معه معاهدة صلح وسلام، وكان مقر الملك القشتالى (بدرو) المعروف بالقاسى - فى أشبيلية موطن (بنى خلدون) القديم.

أدى (ابن خلدون) مهمته السياسية بنجاح حمل الملك القشتالى - لإعجابه به- على أن يعرض عليه البقاء فى بلده، وأن يعينه مستشارًا له، واعدًا إياه أن يرد إليه أملاك أسرته فى أشبيلية.

غير أن (ابن خلدون) اعتذر عن عدم قبول هذا العرض وعاد إلى غرناطة، حيث بالغ السلطان (محمد الغنى بالله) فى إكرامه والحفاوة به، (لكن عبدالرحمن ابن خلدون) الذى عرف ما فى هذه الأجواء السياسية من دسائس ومؤامرات خشى من منافسة الوزير (ابن الخطيب) - على الرغم من علاقات المودة الظاهرة بين الرجلين - فآثر الابتعاد عن الأندلس.

فى ذلك الوقت كتب إليه (أبوعبدالله) أمير بجاية (فى المغرب الأوسط) يستدعيه لكى يتقلد منصب الحاجب أو رئيس الوزارة لديه، لكن القدر لم يمهل (ابن خلدون) كثيرًا، حيث اندلع الصراع بين السلطان (أبى عبدالله) صاحب بجاية،وابن عمه (السلطان أبى العباس) صاحب قسنطينة الذى هزم سلطان بجاية الذ اعتمد على (ابن خلدون) فى جمع المزيد من الضرائب والمغانم لتعويض خسائر الحرب من قبائل البربر بوسائل مالت إلى الشدة والقسوة،وهو ما دفع هذه القبائل للشكوى والسعى ضد (ابن خلدون) عند السلطان (أبوعبدالله) وتحسبا لتأزم

العلاقة بينه وبين السلطان وخشية تعرضه مرة ثانية لمحنة السجن طلب إعفاءه من العمل والرحيل فأذن له السلطان، إلا أنه سرعان ما قبض على شقيق (ابن خلدون) وصادر أمواله وممتلكاته،وهو ما دفع (ابن خلدون) للفرار من بجاية قاصدًا بسكرة.

وعندما علم بذلك السلطان (أبوحمو) صاحب تلمسان الذى اندلع الصراع بينه وبين سلطان بجاية (أبى عبدالله) أرسل فى استقدام (ابن خلدون) وطلب منه أن يصبح حاجبه وأن يساعده فى لم شمل القبائل لبناء تحالف فى محاولة للاستيلاء على ولاية بجاية وهو ما نجح فيه (ابن خلدون).

إلا أن استنفار السلطان (عبدالعزيز) صاحب المغرب الأقصى ومحاولة استغلال فرصة انشغال السلطان (حمو) بالحرب مع بجاية فى الاستيلاء على تلمسان، وإقصاء السلطان (حمو)عن حكمها، وقيامه بالفعل بالاستيلاء على مراكش فى طريقه لتلمسان، دفع (ابن خلدون) للفرار إلى الأندلس لدى ملك غرناطة.

ولكن أعوان السلطان (عبدالعزيز) قبضوا عليه، وقام السلطان بتعنيفه على محاولته الهرب إلى الأندلس ثم أطلق سراحه فيما بعد، فلجأ (ابن خلدون) إلى الشيخ الولى (أبى مدين) حيث لازمه مفضلا الانقطاع للعلم والخلوة، إلا أن السلطان (عبدالعزيز) بعد استيلائه على تلمسان طلب منه فى عام 772هـ أن يقطع خلوته وعزلته وأن يقوم بمهمة جمع شمل قبائل (رياح) ببسكرة للتحالف معه، وهى المهمة التى استجاب لها (ابن خلدون) ونفذها بنجاح انتهى باستقرار الأمور للسلطان (عبدالعزيز)، والقضاء على حالة عدم الاستقرار والفتن بالمغرب الأوسط.

وأثناء إقامة (ابن خلدون) ببسكرة بلغه خبر فرار الوزير (ابن الخطيب) من الأندلس وقدومه على السلطان (عبدالعزيز) بتلمسان عام 772هـ وانتقاله معه إلى فارس، وفى 12 ربيع الأول 774 توفى السلطان (عبدالعزيز) بفاس وخلفه ابنه الطفل (أبوبكر السعيد محمد)، ووصل (ابن خلدون) إلى فاس فى جمادى 774 فرحب به الوزير (أبوبكر ابن غازى)، واستقر ابن خلدون وعكف طوال إقامته على قراءة العلم وتدريسه، ثم حدث بعد أن عزل السلطان الطفل (أبوبكر السعيد محمد) وتولى السلطان (أبوالعباس أحمد ابن أبى سالم المرينى) عام 776هـ، ووزر له (محمد ابن عثمان) الذى كان يحقد على (ابن خلدون) أن أغرى السلطان بالقبض عليه، لكن الأمير (عبدالرحمن) تدخل وأطلق سراحه، مما دعاه بعد تلك المحنة إلى الرحيل إلى الأندلس للمرة الثانية، تاركا الأوضاع المضطربة فى فاس بسبب فرار الوزير (ابن الخطيب) واتهامه بالخيانة، الذى سرعان ما قبض عليه مما اضطر معه (ابن خلدون للعودة إلى المغرب فى محاولة لإنقاذه، ولنفى تهمة ربط استقراره فى الأندلس بمحاولة بناء تحالف بين سلطان الأندلس والأمير (عبدالرحمن) فى مواجهة السلطان (أبوالعباس) الذى سبق واعتقل (ابن خلدون)، إلا أن (ابن خلدون) فشل فى مسعاه لإنقاذ (ابن الخطيب) الذى قتل بمحبسه خنقا عام 776هـ.

أثرتَ هذه الأحداث المؤلمة على نفسية (ابن خلدون) وجعلته يمل السياسة والحياة العامة ويؤثر الاعتزال والتفرغ للعلم، لذلك عندما طلب منه السلطان (حمو) صاحب تلمسان أن يقوم مرة ثانية من قبله بمهمة جمع شمل قبائل (الذواودة) للتحالف معه، ورغم عدم رغبة (ابن خلدون)

فى القيام بهذه المهمة إلا أنه اضطر للموافقة ظاهريًا مدبرًا فراره إلى قلعة (ابن سلامة) من بلاد بنى توجين، على بعد خمسة كيلو مترات من مدينة فرندة الحالية فى ولاية وهران غرب الجزائر حيث لحق به أهله بعد ذلك، وانقطع بها أربع سنوات استطاع خلالها أن ينجز كتابة المقدمة كتابه الأشهر.

وفى سنة 779هـ قرر (ابن خلدون) العودة إلى تونس فاستأذن سلطانها (أبا العباس الحفصى) فى الوفود عليه، فسمح له ووصلها فى 780هـ وهناك انهال عليه طلاب العلم، وهوما أثار غيرة الشيخ (محمد بن عرفة) إمام الجامع وشيخ فقهاء تونس الذى تحول طلابه لـ(ابن خلدون)، وكان وثيق الصلة ببطانة السلطان، حيث طلب منها السعى بالوشاية بـ(ابن خلدون) لديه، لكن السلطان لم يستجب لوشايته، وكلفه بأن يعكف على استكمال كتابه العبر، فأكمل منه أخبار البربر وزناتة وكتب عن أخبار الدولتين قبل الإسلام وما وصل إليه منها، وأكمل منها نسخة رفعها إلى السلطان (أبى العباس) ومع استمرار محاولات الوشاية طلب (ابن خلدون) من السلطان أن يسافر لأداء فريضة الحج فى عام 784هـ/ 1382م، على سفينة غادرت تونس إلى الإسكندرية، التى وصل إليها بعد رحلة استغرقت أربعين ليلة، وبعد عشر ليال فقط من جلوس السلطان (الظاهر برقوق) على عرش مصر، يصف (ابن خلدون) -فى سيرته الذاتية- القاهرة فى أول نزوله بها بأنها (حاضرة الدنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم.. وإيوان الإسلام وكرسى الملك)، ويشيد بقصورها ومساجدها ومجالس العلم فيها.

يقال إنه لما دخل (ابن خلدون) القاهرة تجمع عليه طلبة العلم

يلتمسون الإفادة فجلس للتدريس بالجامع الأزهر، ثم اتصل بالسلطان (الظاهر برقوق) فأكرمه وتشفع لدى السلطان (أبى العباس الحفصى) فى أن يسمح لأهله بأن يلحقوا به فى مصر، بعد أن منعهم أملا فى عودة (ابن خلدون) إلى تونس مرة أخرى، وذلك لأنه غادرها بذريعة تأدية فريضة الحج لا الاستقرار فى القاهرة دون استئذانه.

وحينما توفى بعض المدرسين بمدرسة القمحية التى كانت تقع بجوار مسجد (عمرو بن العاص) كلف السلطان (الظاهر برقوق) (ابن خلدون) بالتدريس بها، وفى نفس الوقت سخط السلطان على قاضى المالكية، فعزله وولى (ابن خلدون) منصبه، حيث كان يجلس للحكم بالمدرسة الصالحية.

ويتحدث (ابن خلدون) عن عمله فى تلك الفترة كقاض قائلا: (فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله، لا تأخذنى فى الحق لومة لائم، ولا يزيغنى عنه جاه ولا سطوة، مسويا فى ذلك بين الخصمين، آخذ بحق الضعيف من الحكمين، معرضًا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحًا إلى التثبيت فى سماع البيانات، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البار منهم مختلطًا بالفاجر، والطيب ملتبسًا بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة).

ويمضى (ابن خلدون) فى بيان فساد القضاء فى ذلك العصر وما اختطه من جانبه لتحقيق العدالة فى القضاء، مما أثار عليه الأحقاد والشغب، حتى أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة وتوافق ذلك مع غرق أسرته بكاملها فى

عرض البحر عند مجيئهم مصر وفقدانه لزوجته وأولاده وثروته فى عام 787هـ مما ضاعف من آلامه، ورجح لديه العودة إلى العزلة والزهد فى الحياة فطلب من السلطان أن يعفيه من منصبه كقاض، وبالفعل استجاب السلطان لطلبه، وأعاد المنصب إلى القاضى السابق.

وتفرغ (ابن خلدون) للعلم والتدريس والقراءة والتأليف حتى خرج إلى الحج عام 789هـ/ 1387م عاد (ابن خلدون) ن الحج للعمل بوظيفة تدريس الحديث بمدرسة (صرغمتش) التى كانت تقع إلى جوار جامع (أحمد بن طولون) بالقاهرة، وولاه السلطان مهمة التدريس بها عام 791هـ ثم عينه ناظرًا لخنقاه (بيبرس) عوضًا عن (شرف الدين عثمان الأشقر) ثم قلده منصب قاضى المالكية فى 801هـ ونتيجة صرامته ونزاهته وتشدده فى إقامة العدل عزل فى شهر محرم عام 803هـ وسافر إلى بلاد الشام فى منتصف ربيع الأول، حيث تشير المراجع إلى وجود (ابن خلدون) فى دمشق أثناء حصار (تيمورلنك) لها فى عام 803هـ/ 1400م، فاستعمل الحيلة وتدلى من أسوارها بحبل حتى يخرج، وقصد (تيمورلنك) راجيًا منه إنقاذ دمشق وعدم اسبتاحتها وتدميرها، وهنا تظهر أستاذية (ابن خلدون) وخبرته بالعلاقات الدبلوماسية وبأساليب التعامل مع الحكام، فقد كان يعلم أن (تيمورلنك) كان يعتمد على أقوال المنجمين والأطباء ويقربهم إليه حتى قيل إنه لا يتحرك حركة إلا بعد استشارة الفلكى واستطلاع رأيه، فاستخدم (ابن خلدون) هذا المدخل للتأثير على (تيمورلنك) فذكر له المنجم والطبيب اليهودى المشهور (إبراهيم ابن زرزر) والذى تعرف عليه بأشبيلية فى بلاط الملك (بدرو القاسى) وكيف أنه تنبأ بظهور وعلو (تيمورلنك) منذ أكثر من عشرين

عامًا، كما استخدم (ابن خلدون) العبارات التى تجذبه فأخبره بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة منذ أن تألق نجمه، وقد أثار ذلك إعجاب (تيمورلنك) لدرجة أنه قرر أن يستبقيه فى خدمته فلم يرفض (ابن خلدون) وإنما استأذنه فى أن يذهب إلى القاهرة ليعود بأهله وكتبه فأذن له، فرحل إلى مصر وهو لا يصدق النجاة.

وكان قد أشيع فى مصر أنه هلك، فلما رجع أعيد مرة أخرى إلى منصب قاضى المالكية فى أواخر شعبان من نفس العام، واستمر فيه إلى رجب عام 803هـ وعزل مجددًا ثم أعيد، وهكذا تكرر الأمر حوالى ست مرات حتي وفاه الأجل وهو قاضى المالكية فى عام 808هـ/ 1406م، ودفن فى مقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة فى اتجاه الريدانية (العباسية حاليا).

هكذا قضى (ابن خلدون) فى مصر السنوات الأربع والعشرين الأخيرة من حياته، كان فيها موضع تكريم من السلطان (برقوق) فى ولايته على مصر بين سنتى 784هـ/ 801هـ وهى تعد آخر عصور الازدهار لدولة المماليك الجركسية، إذ لم يكد يلى الملك السلطان (فرج بن برقوق حتى تفاقمت أحوال البلاد، وانتشرت الفتن والثورات وأصاب الشلل أجهزة السلطة الحاكمة، وتعد فترة حكم (فرج بن برقوق) من أسوأ فترات التاريخ المملوكى حتى أن (المقريزى) تلميذ (ابن خلدون) يصفه بأنه (أشأم ملوك الإسلام) وانتهى به الأمر مقتولا على أيدى عساكره فى سنة 808هـ وهى نفس السنة التى أسلم فيها (ابن خلدون) روحه إلى بارئها، وعلى امتداد حياته التى استمرت ثلاثة أرباع القرن إلا سنة واحدة قضى منها 24 سنة فى تونس، 26 سنة متنقلا بين أرجاء

المرغرب والأندلس، 24 سنة فى مصر والشام والحجاز.

غطى نشاط (ابن خلدون) ميادين الإدارة والسياسة والخطابة، والقضاء والدرس والبحث، والتدريس والتأليف، تنعم بالقصور وذاق مرارة الاعتقال والسجن، ودخل غمار الحياة العامة قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وتنقل على امتداد عمره بين وظائف كتابة السر، وخطة المظالم، وصار وزيرًا وحاجبًا وسفيرًا ومدرسًا، وقاضيًا وخطيبًا، وقد مارس كل ذلك بين سلسلة من الحوادث والمشاكل وبين ضروب من المنافسات والمخاصمات والانقلابات السياسية التى اشترك اشتراكًا فعليًا فى عدد غير قليل منها.

وقد ساعده ذلك كثيرًا فى إثراء تأملاته عند كتابة مقدمته حيث مكنته هذه الخبرة الحياتية العميقة من اكتساب معرفة دقيقة بأحوال العالم الإسلامى كله، بل تجاوز ذلك إلى معرفة ما يحيط بهذا العالم، سواء على حدوده الغربية فى أوروبا أو فى حدوده الشرقية المتآخمة للإمبراطورية التترية، وهو ما كان لها أكبر الأثر على التكوين الفكرى والثقافى ل(ابن خلدون) الذى انعكس بعد ذلك فى عمله الموسوعى (العبر فى ديوان المبتدأ والخبر) – ولاسيما الجزء الأول منه المعروف بالمقدمة – فقد كان حضرى المولد والمعيشة والتفكير حيث قضى معظم حياته بين تونس والقاهرة وغرناطة والقدس ودمشق وفاس، وغرناطة وأشبيلية، وهى مدن عريقة مزدهرة بالعلوم والفنون.

وليس هناك من شك أن عيشة (ابن خلدون) فى تلك المدن ساهمت فى توسيع أفق تفكيره، وأتاحت له فرصا فريدة للانفتاح الذهنى نتيجة للاتصال بعلماء ذوى ثقافات فرعية مختلفة داخل الإطار الإسلامى

الشامل، وما حدث خلال ذلك من احتكاك فى الآراء لابد أنه قد انبعثت منه شرارات الإلهام فى شتى أنحاء العلوم التى مكنت (ابن خلدون) من مطالعة العديد من الكتب التى ألفت أو صنفت فيها، تلك الكتب التى زخرت بها المكتبات العامة والخاصة فى تلك المدن.

كذلك ساعدته إقامته وعزلته فى قلعة (ابن سلامة) على التفرغ والتأمل الذى يتيح جولان الفكر فى الذهن الملئ بالمعرفة فى صفاء نظر وروية تنظير، كما أن مقامه الطويل بالقاهرة مكنه من تنقيح كتاب العبر، وإضافة تاريخ المشرق إليه وإعادة النظر فى مقدمه كتابه وزيادة إضافات كثيرة عليها على درجة كبيرة من الأهمية، كذلك فإن الصراعات السياسية وقرب (ابن خلدون) منها، بل مشاركته فى بعضها ساعده كثيرًا على صياغة آرائه حول صلاح المجتمعات وتطورها وانهيارها.

(4)
زمن (ابن خلدون) وعصره

الحقيقة التى لا ريب فيها أنه لكل عصر قيمه وعاداته وطرائفه وأساليب الحياة السائدة فيه، التى تحدد ملامح حضارة هذا العصر، والتى يعكسها الإنتاج الفكرى لعلمائه ومثقفيه، كما يعكس هذا الإنتاج الفكرى ملامح الحضارة والعصر الذى ينتمى إليها فهو أيضا يتأثر بهما لهذا ترتبط عملية استيعاب وفهم الإنجاز العلمى والفكرى للعلامة (ابن خلدون) بالتعرف على ظروف عصره وملامحه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

فالعصر الوسيط الذى ينتمى إليه (ابن خلدون) لم تعرف مجتمعاته الطبقات الرأسية – كما هو الحال اليوم- بل كانت طبقات ومراتب وأصنافا أفقية على طول امتداد العالم الإسلامى، فهناك طبقة الجنود وطبقة العلماء التجار وطبقة المتصوفة.. إلخ، وكان أفراد كل طبقة يتعاطفون فيما بينهم بغض النظر عن اختلاف جنسياتهم، مهما بعدت بهم المسافات وفرقت بينهم السياسات، بمعنى أن العالمية والوحدة كانتا من سمات العصر الوسيط، وهو أمر كان ملائمًا لطبيعة البنية السياسية والنشاط الاقتصادى لذلك العصر.

فقد كان النشاط التجارى من أكثر الأنشطة الاقتصادية رواجًا فى بلاد المغرب العربى، حيث كانت قوافل التجار تقطع فيافى هذه البلاد، ويشير (ابن بطوطة) المعاصر لـ(ابن خلدون) فى رحلاته –وفى أكثر من مناسبة- إلى أنه كان يسير فى قوافل بصحبة تجار، وعلى سبيل المثال، يشير إلى أنه ارتحل مع رفقة من التجار من تونس، وذلك من مليانة إلى

بجاية، وكذلك كان فى قافلته، عند مغادرته مدينة قسنطينة، مجموعة من التجار، رافقوه إلى مدينة بونة، وبطبيعة الحال، فإن التجارة لم تكن تقتصر على الأجزاء الداخلية للمغرب العربى حسب، بل كانت البضائع تجلب من مختلف الأماكن المجاورة، مثل الأندلس، وبلاد الشام، ومصر، وجنوب الصحراء.

فقد أشار (ابن بطوطة) إلى أن حاكم قسنطينة أمر له بثوب بعلبكى مما يدل على تجارة الأقمشة، واستيرادها من بلاد الشام، وكانت مدينة

قسنطينة بالذات -حسبما يشير الرحالة (خالد البلوى)- مدينة تتوفر فيها الأرباح، وفى أقطارها يلتقى التاجر والفلاح، الأمر الذى يشير إلىوجود حركة تجارية ونشاط زراعى فيها.

وبطبيعة الحال، إن هذا لا يعنى أن التجارة اقتصرت على ما ذكرناه أعلاه، فإن هذه الأمثلة هى بعض ما أورده الرحالة، ولكن هناك -بالتأكيد- مدنًا أخرى اشتهرت بالتجارة مثل تلمسان، التى كانت مقصد تجار الآفاق، وغيرها مما لم يذكره الرحالة.

ومن المعلومات والمشاهدات الواردة فى رحلات (ابن بطوطة) يمكن أخذ فكرة جيدة عن الأوضاع الاقتصادية فى المغرب، حيث تعرض للأسعار، وقارنها مع بلدان أخرى، مثل بلاد الشام ومصر، فهو يصف دراهم المغرب، ويرى أن فوائدها كثيرة على الرغم من صغر حجمها، ويشير -على سبيل المثال- إلى أن سعر لحوم الأغنام فى مصر أغلى بكثير من مثيلاتها فى المغرب (وأما السمن فلا يوجد بمصر فى أكثر الأوقات، والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الأدام لا يلتفت إليه بالمغرب).

ثم يورد لنا حديثًا طريفًا عن صحون مصر،وقدورها الراسيات، بما تحتوى عليه من عدس، وحمص، وقرع، وبقل، وزيت، وسيرج، ويقول إن هذا كله متيسر فى المغرب، لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم، والسمن، والزبد، والعسل، وسوى ذلك، أما بلاد الشام فعلى الرغم من كثرة الفواكه بها، لكنها ببلاد المغرب أرخص ثمنًا، ويضرب مثالا على ذلك العنب، الذى يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة (أى الدراهم الحسنة الجيدة)، والدرهم النقرة يساوى ستة دراهم من دراهم المغرب، وأما الرمان والسفرجل، فتباع الحبة منه بثمانية فلوس، وهى درهم من دراهم المغرب، وأما الخضر والفواكه، فيباع بالدرهم النقرة منها أقل ما يباع بالدرهم الصغير، وكذلك اللحم، ويخلص (ابن بطوطة) إلى أن بلاد المغرب، هى أرخص البلاد، وأكثرها خيرات، وأعظمها فوائد.

وبخلاف النشاط التجارى الرائج كان هناك نشاط زراعى واسع فى بلاد المغرب الأقصى حيث يصف (ابن بطوطة) و(ابن الحاج النميرى) مدينة مكناس المغربية، وما يكتنفها من بساتين، وخضرة يانعة، لاسيما جنات الزيتون المحيطة بها من كل جانب، ووصف (خالد البلوى) البساتين المحيطة بمدينة بجاية، الملتفة الأشجار اليانعة الثمار، كذلك قدم (ابن الخطيب) تصورًا جيدًا عن النشاط الزراعى والتجارى فى بلاد المغرب، فعند حديثه عن مدينة سور موسى من مجامع دكالة، أشار إلى حوزها الذى يتميز بكثرة الماشية، لاسيما الثيران المستخدمة فى حراثة الأرض، اللى بلغ عددها، حسب تقديره ثلاثة آلاف زوج، كما أشار إلى السوق الجامعة خارج سور المدينة، والتى يحشر الناس إليها ضحى، ويتقاطرون من كل جانب، حيث تستمر العمليات التجارية من بيع وشراء

فى هذا السوق إلى غروب الشمس.

ويبدو أن استثمار الأراضى للزراعة كان يدر مدخلات طيبة،الأمر الذى شجع (ابن الخطيب) على محاولة شراء أرض زراعية واستثمارها فى منطقة تامسنا، وقد خاطب (ابن بطوطة) الذى أصبح قاضيًا فى هذه المنطقة، بعد انتهاء رحلاته، وله أراض واسعة مستغلة فيها، يستشيره فى هذا الأمر ويطلب جواره وذلك برسالة موجهة إليه، يستشف منها أنه ليس أول من فكر بذلك، بل سبقه (ابن بطوطة) الذى أصبح قاضيًا فى تامسنا، فاستغل وجوده، واستثمر موارده فى الزراعة، التى رآها بفكره الثاقب ونتيجة تجاربة، أنها أفضل ما يمكن العمل به لضمان بقية حياته، والعيش برفاهية وسلام.

وقد انعكس هذا الرخاء الاقتصادى على مستوى ونوعية الحياة فى تلك البلدان التى عرفت أيضا نهضة عمرانية كبيرة أشارت كتب الرحالة إلى أبرز معالمها مثل مدرسة الكتبيين بتونس، التى بناها الأمير (أبوزكريا الحفصى) المتوفى عام 700هـ/ 1300م وجامع الزيتونة فى تونس، ومدينة سوسة الى وصفت على (أنها صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر، وكذلك مدينة صفاقس، وطرابلس، وفى المدينة البيضاء (أى فاس العاصمة) حيث يصف (ابن بطوطة) جامع الحمراء فى فاس، وما يتميز به من حسن وإتقان للبناء وإشراق النور، وبديع الترتيب، كذلك وصفه للمدرسة الكبرى التى تم بناؤها عام 756هـ/ 1355م بالموضع المعروف بالقصر جوار قصبة فاس، قائلا:

هى المدرسة التى (لا نظير لها فى المعمور اتساعًا وحسنًا وإبداعًا،وكثرة ماء وحسن وضع، ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق

وخراسان ما يشبهها)، ووصف أيضا عمارة الزاوية العظمى، التى تقع على غدير الحمص، خارج المدينة البيضاء، وهى التى لا مثيل لها فىعجب وضعها وبديع صنعها، ويذكر بأن هذه الزاوية هى أبدع زاوية رآها فى حياته، وفى مدينة مراكش أشار إلى مسجد الكتبيين، وصومعته الهائلة العجيبة التى صعد إليها، فرأى من فوقها كل أطراف المدينة.

كذلك وصف مدرسة مراكش التى بناها السلطان (أبوالحسن) التى تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة، ومن الجدير بالذكر أن (ابن بطوطة) شبه مدينة مراكش بمدينة بغداد (إلا أن أسواق بغداد أحسن)، وملاحظته هنا فى محلها، نظرًا لتقارب الطقس وكثرة أشجار النخيل فى المدينتين، وفى مدينة مكناس يشيد (ابن الخطيب) بالزاوية القديمة ذات المئذنة السامية، والمرافق المتيسرة، والتى يلاصقها الخان البديع، الخاص بالسابلة والجوابة فى الأرض ويقابلها غربا الزاوية الحديثة، التى تتميز بالفسحة فى المكان، والتفنن فى البناء والزاويتان من بناء السلطان (أبى الحسن المرينى) وعند زيارته لمدينة أغمات، يشير إلى مسجدها العتيق، الكبير المساحة، الرحيب الكنف، المتجدد الألقاب، ويصف مئذنته على أنها لا نظير لها فى معمور الأرض، وذلك من باب السخرية والتهكم فقد كانت فى الأصل مربعة الشكل ثم صار أهلها يبخسون الذرع ويجحدون العرض حتى صارت مجسمًا كاد يجتمع فى زاوية المخروط فقبحت حتى ملحت، واستحقت الشهرة والغرابة، كذلك يسهب في وصف قبر المعتمد بن عباد، الذى يقع خارجها، وإلى جانبه قبر زوجته اعتماد الرميكية، حيث وقف هناك وترحم عليه، وأنشد قصيدة مطلعها:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات

رأيت ذلك من أولى المهات

ويعد الوصف من أهم العناصر التى طغت على أسلوب الرحالة (إبراهيم بن الحاج النميرى) الذى قدم صورة رائعة للآثار المعمارية، والمظاهر الحضارية الأخرى، ويقدم لنا فى أثناء هذا الوصف أحيانا معلومات عن آثار لا نعرف عنها شيئًا، مثل الزاوية المتوكلية، التى أمر أبوعنان ببنائها على غدير الحمص، والتى خصص صفحات كثيرة للحديث عنها، وعن بنائها، وعن المشايخ والعلماء الذين سكنوها، وتواجدوا فيها، وقد اندثرت هذه الزاوية اليوم، وأصبحت أثرًا بعد عين.

وكان يتصل بها دار معدة لنزول الواردين، وتقابلها دار أخرى معدة للطبخ، لا تخمد بها نيران القرى، وقد قامت بإزاء هذه الزاوية سانية بديعة الأشكال، لكن السلطان (أبا عنان) رأى أن هذه السانية لا تفى بالغرض، لهذا أمر بعمل ناعورة، أسهب ابن الحاج فى وصفها والحديث عن حسنها وجودة عملها، كما وصف ناعورتين أخريين، أمر (أبوعنان) بإحداثهما، فجاءتا (أبدع منظرًا، وأطيب مكسرًا، وأصفى جوهرًا ..) وقد تحدث (ابن الحاج النميرى) أيضا عن المدارس القائمة بجوار شالة، ووصفها على أنها (شامخة البناء وثيقة الزساس، منفسخة الأرجاء، حيطانها كالأسوار، وسقفها كالفلك إلا أنه ليس بالدوار)، كذلك أعطانا (ابن الحاج) صورة عن المارستان الذى أنشأه السلطان (أبوعنان) فى سلا: (فمبناه صحيح، لا يفارقه عليل.. والمقيم فيه كالسافر يصح ويغنم، وباقتبال الأجر والعافية ينعم..).

وقد قدم نفس الرحالة معلومات وافية عن القصور، والحصون، التى

سكنها الأعراب، وهى مبان شامخة بديعة الصنع، رائعة المنظر، متناثرة عبر الصحراء القاحلة، مثل قصر طولقة، ولميس، وتقاوس، وفرفر.و غيرها من القصور والحصون المنيعة، وقد صور لنا (ابن الحاج) شكلها ومحتواها، ومواد بنائها، وكثيرًا من العناصر المكونة لبنيتها، ففى قصر (عثمان بن على الرياحى) مثلا، الذى يعد أنموذجًا من نماذج القصور فى العصر المرينى، كان شكله مربعًا، محاطًا بأسوار من الحجر المنجور المسمى بالعيسوى، الذى من خصائصه أنه لا يستجيب لقذائف المنجنيق، ويحيط بالقصر حدائق خضراء من الأعشاب والأشجار والزهور.

ولم تقتصر مظاهر النهضة العمرانية على ذلك فقط، حيث يشير الرحالة أيضًا إلى الكثير من الطرق البرية والبحرية التى يسرت لهم سبل التنقل، فـ(ابن بطوطة) سلك فى رحلته الطريق البرى الساحلى من طنجة وصولا إلى الإسكندرية، وذلك عبر المغربين الأوسط والأدنى، فى حين أن (خالدا البلوى) اتبع الطريق ذاته وصولا إلى تونس، لكنه فضل البحر للوصول إلى الإسكندرية وهو يصف لنا هذا الطريق، الذى أقلته فيه إحدى المراكب الضخمة، التى تتسع لنحو ألف راكب، وهذا الخط البحرى كان يمر عبر جزر البحر المتوسط التى يسيطر عليها الروم، فكان الإقلاع من تونس إلى جزيرة قوسرة، ثم إلى مالطة، وأقريطش (كريت) وبعض الجزر الصغيرة الأخرى وصولا إلى قبرص، التى هى (جزيرة كبيرة معمورة بالنصارى كالجزر التى قبلها)، ومن هذه الجزيرة كان الإقلاع إلى الإسكندرية مباشرة، ويبدو من وصف (البلوى) أن هذا الخط كان مطروقًا جدًا، بدليل شدة الطلب عليه، كم يفهم أيضا أن بعض خطوط المواصلات البحرية كانت تمر بمراكز غير إسلامية، الأمر

الذى كان مألوفًا للمسافرين، مما يدل على أن حركة النقل والتجارة، لم تكن تخضع لقيود أو موانع بين عالم الإسلام، وبلاد غير المسلمين، ويؤيد هذا أن (ابن بطوطة) استقل فى طريق عودته من تونس إلى المغرب الأوسط، سفينة عائدة للقطلانيين، سارت به إلى سردانية، وهى من (جزائر الروم)، ومنها إلى تنس، ثم إلى مازونة، وأخيرًا إلى مرسى مستغانم، ومنه برا إلى تلمسان، وكان قبل هذا قد استقل سفينة متوجهة من مصر إلى تونس، لكنه نزل فى جزيرة جربة، وسلك (خالد البلوى) هذا الطريق أيضا فى أثناء رجوعه من الإسكندرية لكنه نزل فى مرسى الحمامات وهى بليدةج قريبة من تونس.

والمهم فى هذه الرحلات البحرية أنها عرفتنا بعض أنواع السفن المستخدمة فى ذلك العصر.

فالسفينة التى أقلت ابن بطوطة من مصر إلى تونس، كانت (قرقورة صغيرة لبعض التونسيين)، والمفروض بالسفن التجارية من هذا النوع أن تكون كبيرة، لأن القرقورة تتألف عادة من طابقين أو ثلاثة طوابق، وهذا النوع الكبير كان تابعًا لأسطول جنوة، التى كانت تمتلك هذه السفن التجارية العاملة فى المشرق، وربما كانت إشارة ابن بطوطة للسفينة التى ركبها من مصر، على أنها صغيرة، قد جاءت لتمييزها عن السفن الجنوية، ومن الجدير بالذكر أن ابن بطوطة قد أشار إلى هذه السفن الكبيرة التى ركبها من اللاذقية متوجهًا إلى بر (التركية) المعروف ببلاد الروم، ويبدو أن السفينة التى استقلها خالد البلوى من تونس إلى الإسكندرية، كانت أيضا من نوع (القرقورة) الكبيرة لأنها كانت تتسع لألف راكب، لكنه لم يذكر نوعها فى هذا المكان، فى حين ذكر

(القرقورة) التى أقلته من ميناء هنين (بنى صاف) بالجزائر الحالية، إلى ميناء المرية بالأندلس، ويشير الرحالة فى رحلاتهم إلى امتلاك الإمارات المغربية للعديد من الأساطيل والقطع البحرية التى كانت تستخدم فى أغراض السفر وغيرها مثل الطرائد، والشياطئ والسفن الاستطلاعية والسلالير، والقوارب، والسفائن التى تحمل الأفلاك والأملاك، والشوانى، والمراكب والحراقات.

ولم تختلف أوضاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر - البلد التى قضى بها (ابن خلدون) الربع قرن الأخير من حياته - كثيرًا عن الحياة فى بلاد المغرب العربى من حيث ازدهار الحياة الاقتصادية وهو ما يظهر بوضوح فى الانطباعات الخلاقة التى أوردها ابن بطوطة من خلال وصفه لهذه البلاد التى زارها أثناء رحلته، ووصفه لمصر الحضارة التى بهرته مثلما بهرت معاصره (ابن خلدون)، فبدأ بوصف جمال الإسكندرية وقوة أسوارها وأبوابها ومنارتها وعمود السوارى فيها، وفنادقها وميناىها وما فيها من مراكب وبضائع وتجار من مختلف الجنسيات، وأموال وأرباح طائلة.

وحينما زار القاهرة بهره النيل بعذبوته واتساعه، وقال إنه ليس فى الأرض نهر يسمى بحرًا غيره قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم)، فسماه يما وهو البحر، ثم قال وهو فى النيل من المراكب ستة وثلاثون ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط.

وقد اتهمه البعض بالمبالغة، ولكن ثبت أنه كان صادقا فى أقواله ومصيبًا فى أحكامه لأن مثل هذه الأرقام ذكرها الرحالة الإيطالى

Frescobaldi الذى زار مصر سنة 1384م بعد (ابن بطوطة) بنحو خمسين سنة، حيث يقول إنه (لو جمعت جميع المراكب التى شاهدتها فى جنوه والبندقية وانكونا.. لما عادلت ثلث المراكب التى شاهدتها هنا.. ثم إن (ابن بطوطة) يقدر عدد السقاءين على الجمال فى مصر باثنى عشر ألف شقاء والمكارين بثلاثين ألفا، فإذا قابلناه بتقدير Frescobaldi نراه يقدر عدد الجمال والحيوانات التى تنقل الماء فى المدينة بمائة وثلاثين ألفا.

(5)
الحياة الثقافية والسياسية
فى زمن (ابن خلدون)

لا يمكن الفصل بين الإنجاز العلمى الذى قدمه (ابن خلدون) للإنسانية وبين طبيعة الحياة الثقافية والفكرية والسياسية التى عاصرها (ابن خلدون) وشكلت ملامح فكره وتكوينه المعرفي، فقد كان (ابن خلدون) تجسيدًا فى شخصه لوحدة عملية وثقافية شملت العالم العربى الإسلامي، كما كان تجسيدًا فى فكره لفلسفة التاريخ الإسلامية وممثلا لحال الثقافة العربية الإسلامية فى عصر توهجها الأخير حيث عاش فى زمن (كان) العرب والمسلمون فيه ما يزالون يقودون البشرية صوب التقدم والرقى، ومن ناحية أخرى كان العصر الذى عاش فيه (ابن خلدون) هو عصر (التجميع) الذى أنتج الموسوعات الكبرى، عصر التوهج الأخير الذى شهد محاولات (الجمع) أكثر من محاولات (الإبداع) فقد كتب النويرى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) وكتب العمرى (مسالك الأبصار)، وكتب القلقشندى (صبح الأعشى).. كما كتب غيرهم مؤلفات وموسوعات ومعاجم (جامعة).

ومن ناحية أخرى ازدهرت الكتابة التاريخية العربية، وتنوعت أنماط الكتابة التاريخية ما بين الكتب العامة، والرسائل ذات الموضوع الواحد، والسير الملكية، والتاريخ الحضرى الذى يختص بمدينة ما، وفضائل البلدان والخطط، كان (ابن خلدون) هو ابن العصر الأخير من عصور الثقافة العربية الإسلامية (القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى)، ففى القرن التالى مباشرة كانت الدولة العثمانية قد أحكمت

سيطرتها على معظم بلدان العالم العربى، والحقيقة أن العثمانيين لم يكونوا مسئولين عن حالة الجمود التى خيمت على الفكر والثقافة العربية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا فيها نهضة أو يقظة، لقد حافظ العثمانيون على العالم العربى عدة قرون بعيدًا عن السيطرة الاستعمارية الأوروبية، بيد أن هذا كان لصالح السلطان العثمانى وحكومته، ولم يكن لصالح البلاد العربية التى شهدت نوعا من الركود، الذى وقف بها على حدود العصور الوسطى، حتى محاولات النهوض التى بدأت فى خلال القرن العشرين وما تزال متعثرة حتى الآن.

ويتفق مؤرخو الفكر المغربى والأندلسى على أن القرن الثامن للهجرة الرابع عشر الميلادى، وهو العصر الذى عاش فيه (ابن خلدون) كان قرنًا خصبًا كثير الإنتاج عميق البحث فهو العصر الذى عاش فيه فطاحل العلماء والفقهاء وفحول الشعراء والأدباء، الذين انصهروا فى بيئة الشمال الأفريقى ونهلوا من معينها، فأفادوا واستفادوا وتناظروا وعلموا، وكتبوا، وأنتجوا إنتاجًا يتميز بأصالته وجدته، وقد احتفظت لنا خزائن الكتب فى المغرب العربى بكثير من هذا الإنتاج الذى لم ينشر منه إلا جزء ضئيل جدًا، ونذكر من هؤلاء العلماء - إضافة إلى (ابن خلدون) - (ابن الخطيب)، و(ابن مرزوق) و(ابن البناء المراكشى)، و(ابن رشيد السبتى)، و(إبراهيم بن الحاج النميرى)، و(ابن بطوطة) وغيرهم من الأعلام الذين تواجدوا على الساحة العلمية والأدبية للمغرب العربى.

وإذا كان هذا العصر قد تميز -كما أسلفنا- بغزارة الإنتاج العلمى لعمالقة الفكر فى الغرب الإسلامى، إلا أنه يمكن القول، بأن أدب الرحلات هو من أهم الآثار التراثية التى ميزت هذه الحقبة، فقد جاب عدد

كبير من الرحالة المغاربة والأندلسيين الشمال الأفريقى طولا وعرضًا، وجاسوا فيه خلال الديار، وفحصوا أغواره وإنجاده، واصفين لنا بدقة الأحوال السياسية، والثقافية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية لهذه البلاد.

وبطبيعة الحال فإن رؤية هؤلاء الرحالة للحضارة العربية الإسلامية فى شمال أفريقيا، والمغرب العربى بالذات، تختلف من راحل إلى آخر حسب طبيعة رحلته، والغرض منها، والمدة التى بقى فيها فى هذه المنطقة، حيث تأتى الرحلة إلى الحج فى مقدمة الأسباب التى دفعت المغاربة والأندلسيين للتوجه إلى مكة المكرمة، وكان بعض هؤلاء الراحلين، يصف المراحل والأماكن التى يمر بها، فيذكر نبذة عن المواقع التى يسلكها ويدون ذلك.

وقد اصطلح على تسمية هذه الرحلات (بالرحلات الحجازية) ولكتب الرحلات هذه أهمية قصوى لاسيما أنها تصف المسالك والممالك، والمشاهد والمآثر، والمعالم، والحفلات، والمناسبات الخاصة، والأعياد، والعادات والتقاليد، والمناظر الطبيعية، وغير ذلك مما يدخل فى إطار تجولهم ويقع تحت سمعهم وأبصارهم، كل حسب تكوينه، ومقاصده وعاداته وطبعه.

وبالإضافة إلى الحج، هناك العديد من الأسباب الأخرى التى كانت تدفع للقيام بالرحلة، مثل طلب العلم، فالرحلات العلمية كانت شائعة بين الغرب الإسلامى والمشرق، وكان هدف هذه الرحلات هو الاستفادة من العلماء بزيارة الأمصار الإسلامية التى عرفت بتبحرها فى العلوم المختلفة.

وقد عبر (عبدالرحمن بن خلدون) عن هذا الاتجاه بشكل صريح فى مقدمته المشهورة بقوله (فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال)، وهناك أنواع أخرى من الرحلات مثل الرحلات السياسية، التى غالبا ما يقوم بها الرجال الذين يضطلعون بمهمة السفارات، والرحلات السياحية، والرحلات التجارية – لهذا اختلف رحالة هذا العصر فى نظرتهم للأوضاع الثقافية والاهتمام بها، فمنهم من لم يحاول أن يرى فى رحلته سوى العلماء الذين التقى بهم، ودون ما تيسر له من معلومات عنهم، مثل (ابن رشيد الفهرى)، الذى تعد رحلته سجلا وافيا ومكتبة يقرأ منها عن علماء العصر الذين التقى بهم، وهذا على العكس من (إبراهيم بن الحاج النميرى) الذى لم يقصد هذا الموضوع قصدًا فى تدوين رحلته فيض العباب،وإنما الظروف الخاصة، وظروف الاحتكاك الطارئ هى التى أملت عليه الاهتمام بالشخصيات العلمية التى ذكرها، أما (ابن بطوطة) فقد كان يتقصى البحث عن العلماء ويكثر من الحديث عن القضاة والفقهاء، ويحصيهم فى المدن التى يمر بها، فعند مروره بمدينة تونس، فى طريق الذهاب أشار إلى أنه نزل بها فى مدرسة الكتبيين، التى كانت تحتضن طلبة العلم، وتؤويهم، وهى من بناء الأمير (أبى زكرياء الحفصى) المتوفى سنة 700هـ/ 1300م.

كما عَرفنا بقاضى الجماعة فيها، (أبى عبدالله محمد بن أبى العباس أحمد)، المعروف بـ(ابن الغماز)، وكذلك وصف لنا طريقة مجلس إفتاء أحد فقهائها (أبى على عمر بن على بن قداح الهوارى)، الذى تولى أيضًا قضاء المدينة، وكان من أعلام العلماء (ت734هـ/ 1333م)، وكان

هذا العالم يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة، الذى يعد من أبرز المراكز الثقافية فى الغرب الإسلامى، وكان الناس يستفتونه فى المسائل فإذا ما أفتى فى أربعين مسألة، انصرف عن مجلسه ذلك.

وقد أشار (خالد البلوى) فى رحلته إلى دور هذا الجامع العلمى، وأنه سمع فيه من بعض العلماء، أمثال الفقيه (محمد بن أبى قاسم بن عبدالبر التنوخى) وعندما دخل تونس فى طريق رجوعه، وصف لنا (ابن بطوطة) مجلس السلطان (أبوالحسن المرينى) وعدد من كان يضم من الفقهاء، لاسيما الإمام (أبوعبدالله السطى) (ت750هـ/ 1349م)، والإمام (أبوعبدالله محمد بن الصباغ) (ت750هـ/ 1349م)، وقاضى تونس (أبوعلى عمر بن عبدالرفيع)، و(أبوعبدالله بن هارون) (ت750هـ/ 1349م).

ولقد رسم لنا (خالد بن عيسى) صورة أكثر وضوحًا عن علماء تونس الذين لقيهم سواء فى رحلة الذهاب أم الإياب، ومن هؤلاء (أبوالحسن على بن المنتصر الصدفى) (ت742هـ/ 1342م)، الذى نزل فى داره، وأفاض فى الحديث عن علمه، كما ذكر أسماء علماء آخرين، درس عليهم أو أخذ عنهم الأحاديث، وأسهب فى الكلام عنهم، وأشار إلى تقاطر الناس عليهم للتعلم منهم والانتفاع بعلمهم، الأمر الذى يدل على غنى هذه المدينة بالعلماء، وقد أعطانا (خالد البلوى) تفصيلات أخرى عن مدرسة الكتبيين التى نزل فيها (ابن بطوطة) فأشار إلى التقائه بخطيب الجامع الأعظم (أبى عبدالله بن عبدالستار) الذى كان يدرس العلوم فى مدرسة الكتبيين بتونس، التى استوطنها، فسمع عليه (البلوى) كثيرًا من

التفسير والحديث، والفروع والأصول، وغير ذلك.

وقد استفاد (البلوى) أيضا من صرح علمى آخر فى تونس هو مدرسة الشماعين، التى نزلها عند عودته من رحلته المشرقية عام 739هـ/ 1338م فاجتمع هناك بزملائه من الطلبة والمدرسين، ويبدو من حديثه أنه كان قد نزل فيها أيضا فى طريق الذهاب، ومن الجدير بالذكر أن هناك مدارس أخرى فى تونس، لم يتطرق إليها (ابن بطوطة) أو (البلوى) مثل المدرسة المعرضية، أو التوفيقية، ومدرسة الهواء.

أما مدارس وزوايا ومارستانلت المغرب، فقد حظيت بنصيب أكبر من اهتمام (ابن بطوطة) و(ابن الحاج النميرى) و(ابن الخطيب) فقد أشار الأول إلى بناء المدارس العنانية فى مدينة فاس التى امتازت عن مدارس المشرق بالاتساع وكثرة المياه، هذا إلى جانب بناء المارستانات (المستشفيات) فى كل بلد وتعيين الأطباء فيها وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة.أما (ابن الحاج النميرى) فقد أسهب فى ذكر الزاوية العظمى التى أعجز وصفها كل بليغ) كما وصف زوايا ومدارس أخرى منها الزاوية التى أمر السلطان (أبوعنان) ببنائها للفقراء والمساكين فى مدينة سلا (Sale) الواقعة بأقصى المغرب على المحيط الأطلسى وكذلك مدرسة شالة (Chella) شامخة البناء وشالة هى ضاحية مدينة سلا وبها مدافن (بنى مرين)، وفى معرض مدحه للسلطان (أبى عنان) يصف لنا مجالس العلم التى كانت تعقد بحضوره فى مسجد قصر السلطان فى كل يوم بعد صلاة الصبح، وهو المسجد الكبير الذى بناه (يعقوب المرينى) عام 677هـ/ 1278م، بفاس الجديدة، وكان يقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم، وحديث الرسول الكريم صل الله

عيه وسلم، وفروع مذهب الإمام (مالك) وكتب المتصوفة، وقد ظل هذا المسجد إلى الوقت الحاضر يتوفر على الكراسى العلمية الخاصة بالعلوم أعلاه، أى التفسير والحديث والفقه والتصوف.

أما (ابن الخطيب) فقد اهتم بتدوين المعلومات عما رآه من الزوايا والمدارس فى أنحاء المغرب الأقصى، فوصف لنا زاويتين فى مدينة مكناس، ويبدو أن الحركة العلمية كانت جيدة فى هذه المدينة، ويؤيد ذلك وجود ثلاث مدارس لبث العلم فيها، فضلا عن توفر خزائن للكتب ووجود عدد كبير جدًا من العلماء الذين ذكرهم (ابن الخطيب) وأشار إلى اهتماماتهم والعلوم التى درسوها، كما أشار إلى اهتمام الدولة بهؤلاء من حيث الجراية السارية عليهم، وعلى المتعلمين من الطلبة، ومر (ابن الخطيب) بشكل سريع على ذكر زاوية مدينة آسفى، ومدرستها، فى حين أسهب فى الكلام عن علماء مدينة مراكش، الذين لقيهم فيها، وذكر العلوم التى برزوا فيها، لاسيما رواية الحديث، والتاريخ وعلم الكلام، والفقه، والنحو، ونظم الشعر، وقد أشار (ابن بطوطة) إلى مسجد مدينة مراكش الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين، لكنه لم يتطرق إلى دوره التعليمى ومركزه الخاص، كأحد أماكن الحركة العلمية فى المدينة.

رغم ما تؤكده كتب الرحلة من ازدهار الحركة العلمية والثقافية فى عصر (ابن خلدون) نجدها تشير أيضًا إلى ملامح الحياة السياسية فى تلك الحقبة، وهى الملامح التى أثرت على رؤية (ابن خلدون) الفكرية، والتى يعكسها كتابه (العبر فى ديوان المتبدأ والخبر) بجميع أجزائه، ففى هذا العمل وضع (ابن خلدون) خلاصة تجاربه، وبرز كمؤرخ فهم التاريخ بمعناه الحقيقى الشامل الذى يتلخص فى أن الحدث التاريخى أكبر من أن

يكون حدثًا سياسيًا فقط، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك النفسية أيضًا، وهذا مما دعا (ابن خلدون) إلى الكلام عن مفهوم التاريخ على أنه أشبه بمفهوم الحضارة، أى جعله تاريخًا للأمم والشعوب بدلا من سير الملوك والأمراء وطبقات الأعيان، لهذا لا يمكن فصل رؤية (ابن خلدون) عن أسباب قيام الحضارات والدول وانهيارها بمعزل عن واقع الحياة السياسية فى عصره بكل تعقيداتها والتى كان (ابن خلدون) نفسه طرفًا فى بعضها فقد حكمت الشمال الأفريقى فى هذا العصر إمارات تميزت إلى حد ما بالرفاهة والقوة والمنعة، وهى الإمارات التى تجزأت إليها دولة الموحدين بعد سقوطها عام 667هـ/ 1268م، ومن أهم هذه الإمارات.

- الخلافة الحفصية فى تونس (625-941هـ/ 1228-1534م)، التى امتدت من طرابلس فى ليبيا الحالية إلى بجاية فى المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) وكان أمير الدولة عند مرور (ابن بطوطة) فيها عام (725هـ/ 1324م) (أبا يحيى أبا بكر الثانى المتوكل على الله) (718-747هـ/ 1318-1346)، ثم خضعت تونس بعد ذلك لبنى مرين لفترة قصيرة، إثر السيطرة عليها من قبل السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبدالحق المرينى (731-750هـ/ 1331-1348م)، الذى كان يسعى لتوحيد بلاد المغرب العبرى، وقد كان هذا السلطان موجودًا فى تونس.

- إمارة بنى زيان وكانت مسيطرة على الجزء الغربى من المغرب الأوسط، من نهر الملوية، إلى مدينة وهران، واستمرت تحكم هذه المنطقة بين عامى (633-924هـ/ 1236-1518م)، ولكن هذه

الإمارة كانت واقعة بين أطماع بنى حفص فى تونس، وبنى مرين فى المغرب الأقصى، وكان لابد لها من الكفاح لمقاومة هاتين الإمارتين.

- الدولة المرينية (591-957هـ/ 1195-1550م)، وكانت تحكم المغرب الأقصى،و بنو مرين فخذ من زناتة وعلى الرغم من الخلافات والحروب والمكائد التى حكمت العلاقة بين ساسة وحكام العالم الإسلامى فى ذلك العصر – خاصة إمارات المغرب العربى- فقد ظلت الأمة الإسلامية نفسها بشعوبها المختلفة وحدة متماسكة مترابطة، وهو ما تعكسه رحلات الرحالة العرب المسلمين مثل (ابن رشيد الفهرى)، (ابن الخطيب)، (ابن النميرى)، و(ابن بطوطة) وغيرهم بما تسرده من عادات وتقاليد وأنماط حياتية وثقافية، ولكن (ابن بطوطة) الذى لم يستطع أن يتجرد تمامًا من الولوج فى عالم السياسة، أو أن ينفصل عن المحيط الذى يكتنف مجال تحركه، كان غالبا ما يشير إلى حاكم البلد الذى يمر به، ويكتب عنه ما تيسر من مدح أو قدح، حسب نظرته له، وأحيانًا حسب الظروف المحيطة به، فبالنسبة للمغرب الأقصى لم يكن بالإمكان تجاهل الإشارة إلى سلطان العصر وقت قيامه برحلته الشهيرة (أبى سعيد عثمان الثانى) (710-731هـ/ 1310-1331م)، والإشارة إلى آبائه وأجداده، من بنى مرين، والترحم عايهم، وفى طريق رجوعه إلى المغرب، سمع فى القاهرة، كما يقول إن (مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين (أبا عنان) أيده الله تعالى قد ضم إليه نشز الدولة المرينية، وشفى ببركته بعد أشفائها البلاد المغربية.. فتشوفت النفوس إلى المثول ببابه، وأملت لثم ركابه..) وفى ذلك إشارة إلى استبشار (ابن بطوطة) بتوحيد بلاد المغرب.

وهكذا نلمس تغير أسلوبه فى الكلام، فبعد أن كان ناقدًا لكل ما رأى أو لقى من الملوك والرؤساء، نراه منذ أن يرجع إلى المغرب، لا يذكر لهذا السلطان إلا المحاسن، فى مبالغة واضحة، فسلطان المغرب (أبوعنان المتوكل المرينى) هو: (مولانا الأعظم والإمام الأكرم، أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين (أبى عنان) وصل الله علوه وكبت عدوه..) وعلى الرغم من أن (أبا عنان) كان سلطانًا جيدًا بالنسبة لمقاييس عصره، لاسيما أنه اجتهد فى توحيد بلاد المغرب، ولكن إدارته، مثل بقية إدارات كل الدول الزناتية فى المغرب، كانت مضطربة تسودها الفوضى وقد انحلت عرا المملكة من بعده، فلا محل لهذا الإسراف فى مدحه، اللهم إلا إذ كان الغرض من ذلك المديح، هو كسب عطف السلطان، والالتفات إلى مراعاته والإنعام عليه، وقبل هذا تصرف (ابن بطوطة) بشكل مماثل مع والد (أبى عنان)، السلطان (أبى الحسن) الذى كان فى تونس عند عودة (ابن بطوطة) إليها خلال رحلته، فأشار إلى وجوده وسياسته قائلا: (وكانت تونس فى إيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين علم الأعلام وأوحد الملوك، أسد الاساد، وجواد الأجواد القانت الأواب الخاشع العادل (أبى الحسن..).

وقد تواترت فى رحلات الرحالة فى تلك الفترة الإشارة إلى الصراعات السياسية بين الإمارات المتنازعة وجهود بعض الحكام لتوحيدها كما فى رحلات (ابن الحاج النميرى) الذى أبدى اهتمامًا خاصا بالوضع السياسى خاصة أنه رافق السلطان (أبا عنان) فى رحلته إلى قسنطينة والزاب، التى استهدفت توحيد كلمة المغرب الإسلامى تحت راية واحدة، وذلك بإخضاع المغربين – الأدنى والأوسط- لحكمه، فأشار (النميرى)

إلى جهود (أبى عنان) فى هذا السبيل، وتوظيفه لقوات هائلة، برية وبحرية، للوصول إلى غايته، فحقق نصرًا كبيرًا، وفى إشارة أخرى لتصاعد الصراعات بين حكام الإمارات فى منطقة المغرب يذكر (ابن بطوطة) فى رحلته أنه عند وصوله إلى مدينة تلمسان عاصمة إمارة بنى زيان، كان هناك محاولة من العاهل الحفصى لتونس (افريقية) (أبي يحيى أبى بكر بن زكريا الثانى)، لإقناع (تاشفين) بسحب مساندته للمناوئين له، لهذا أرسل رسولين إلى (أبى تاشفين)، وهذان الرسولان هما قاضى الأنكحة بمدينة تونس (أبوعبدالله محمد بن أبى بكر بن على بن إبراهيم النفزاوى)، والشيخ (أبوعبدالله محمد بن الحسين بن عبدالله القرشى الزبيدى) وقد خرج (ابن بطوطة) فى رفقتهما عند انتهاء مهمتهما فى تلمسان.

وبجانب الصراعات السياسية الناشئة بين حكام الإمارات وما أدت إليه من اضطراب سياسى كان هناك أيضا مشكلة الصراعات القبلية التى نجمت عن ضعف السلطة السياسية وأدت إلى خروج العديد من القبائل عليها وممارستها لعمليات السلب والنهب، يذكر (ابن النميرى) فى رحلته أن جهود السلطان (أبى عنان) فى إخضاع المغربين الأدني والأوسط لحكمه اصطدمت بعقبة -كأداء- هى المعارضة الشديدة التى لقيها على يد أعراب الزاب، وأعراب أفريقية بمختلف قبائلهم وبطونهم، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية لرحلته إلى النواحى الشرقية، حتى يخضع هؤلاء لسلطته، ويقضى على فتنتهم وفسادهم وعبثهم بالسلطة، فضرب على أيدى أعراب أفريقية وأخذ منهم الرهائن لضمان ولائهم وعدم تكرار فسادهم، وقطعهم للطرق، وقد أثار (ابن بطوطة) موضوع

الأعراب ومهاجمتهم للقوافل فى أكثر من موقف فى رحلته فى شمال أفريقيا، وأوضح كيف أنه نجا من هذه الهجمات، كذلك أشار (خالد البلوى) فى رحلته، إلى مهاجمة الأعراب للقافلة التى كان يسافر معها، بعد خروجهم من مدينة بونة، وقبل رحلتى (ابن بطوطة) وفى العقد الأول من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادى، اشتكى (أبومحمد عبدالله بن محمد التجانى) أنه فى أثناء رحلته عانى من بعض طوائف هؤلاء الأعراب فى أفريقية قائلا: (وجور هذه الطائفة المعروفة بدلاج فى فعلها وعيثها فى البلاد وأهلها، أشهر من أن نشير إليه، أو ندل بعبارة مختصرة عليه) والحقيقة أن هؤلاء الأعراب كانوا يشكلون مشكلة كبيرة فى الشمال الأفريقى، وقد أشار إليهم (ابن خلدون) وأطنب فى الحديث عنهم، وهو أيضا شاهد عيان للعصر فنسب إليهم كل رذيلة، جاعلا إياهم مصدر كل خراب ودمار، ويئس من أن يأتى الخير على أيديهم، وأشار بالخصوص إلى المغرب، وتغلبهم على الدول المستضعفة فيه.

لهذا لعبت هذه القبائل دورًا سياسيًا واضحًا فى استقرار بعض الإمارات أو التعجل بانهيارها وهو ما يستشف على سبيل المثال من كلام (ابن الخطيب) فى رحلته عن قبيلة هنتاتة المصمودية، وزعيمها عامر بن محمد على الهنتاتى، وعن أهمية دور هذه القبيلة فى الحياة السياسية فى المغرب الأقصى، ولهذا كانت منازلها موضع رعاية وعناية من سلاطين دولة بنى مرين، ونظرًا لأهمية هذه القبيلة فقد حرص ابن الخطيب على مخاطبة (عميد تلك البقعة، وشاه تلك الرقعة)، ليقوم بتوجيه الدعوة إليه، لغرض زيارته، بغية أن يكسب صداقة هذا الشيخ القوى فيجد فى بلاده حمى وأمنًا من الفتن والمخاوف التى كان يجتازها.

كذلك تشير كتب الرحلة فى تلك الفترة إلى ظلم واستبداد الحكام ونهبهم للمحكومين بدون أى رادع، فعلى سبيل المثال وفى بجاية، التى كانت فى ذلك العصر واجهة للإمارة الحفصية فى تونس، لم يستطع (ابن بطوطة) أن يكتم انتقاده لأميرها (أبى عبدالله محمد بن سيد الناس الحاجب)، الذى انتزع مبلغ ثلاثة آلاف دينار، كانت وديعة عند أحد التجار ليوصلها إلى ورثة أحد أصدقائه فى تونس، فعلق ابن بطوطة قائلا (وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم)، على اعتبار أن الإمارة الحفصية تعود بأصلها إلى ما قبل الانقسام إلى الدولة الموحدية.

كان العالم الإسلامى خلال العصر الوسيط يعانى أيضًا من أعداء صليبيين لاسيما فى المغرب والأندلس، حيث كثيرًا ما لجأت الأندلس لاستصراخ إخوانها المغاربة للجهاد ضد المسيحيين، إلا أنها فى نفس الوقت كانت تتوجس خيفة من أطماع ملوك بنى مرين فى بلادها وتخشى أن يفعلوا معها مثل ما فعل المرابطون والموحدون من قبل.

كذلك كانت غرناطة حريصة على سلامة مصالحها المرتبطة مع جيرانها المسيحيين أمثال قشتالة وأراجون، ولهذا لم تلتزم فى سياستها الخارجية جانبًا واحدًا من هذه القوى المحيطة بها، بل كانت تتغير وتتبدل فى حرص وحذر حسب الظروف الخارجية المحيطة بها، فتارة تقترب من قشتالة ضد المغرب، وتارة أخرى تقترب من المغرب ضد قشتالة وأراجون، وتارة تتقرب من ملوك أراجون ضد ملوك قشتالة أو العكس وهكذا، فهذه السياسة الماهرة الماكرة التى سلكتها مملكة غرناطة مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على قرنين من الزمان لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها.

الحقيقة التى لا ريب فيها أن وضع هذه المملكة الصغيرة وسط هذه القوى الثلاث (قشتالة وأراجون والمغرب) قد جعل سياستها مرتبطة بتلك الظروف السياسية التى حولها، ولعل هذا هو السبب فى أن عددًا من ملوك غرناطة ووزرائها قد راحوا ضحية تماديهم فى التزام جانب سياسى واحد دون تقدير العواقب المترتبة على تجاهلهم الجوانب الأخرى مثال ذلك الوزير (محمد بن على) المعروف ب(ابن الحاج المهندس) الذى كان مداخلاً لملوك قشتالة عالما بلغتهم وسيرهم وأخبارهم ومهتمًا بشأنهم ولهذا نهج سياسة مواليه لهم، وانحرف فى ذلك انحرافًا لم يقبله أهل غرناطة فثاروا ضده واتهموه بمالأة ملك قشتالة وكادوا يقتلونه لولا أن سلطانه (أبا الجيوش نصر) أمر بعزله فى الحال.

ويبدو أن (ابن الخطيب) وقع فى نفس الخطأ حينما دفعته سياسته المغربية إلى رسم سياسة موحدة للمغرب والأندلس دون أن يعمل حسابًا لأنصار القوى السياسة الأخرى، ثم جاءت محنته حينما كثرت السعايات ضده وتلبد الجو بينه وبين سلطانه (محمد الخامس ابن الأحمر) ففر إلى المغرب سنة 773هـ/ 1371م فى كنف سلطانه (أبى فارس عبدالعزيز المرينى).

أما الجناح الشرقى للعالم الإسلامى فقد كان يتعرض لخطر هجمات التتار الذين احتك بهم (ابن خلدون) بنفسه، مع ظهور (تيمورلنك) فى المنطقة وانسياب التتر فى بلاد الشام، الأمر الذى حرك سلطان مصر الملك (الناصر فرج) لوقف الزحف التترى، وكان ذلك بتاريخ ربيع الأول 803/ نوفمبر 1400، حيث قام (ابن خلدون) بدور السفير من أجل تطويق حركة التتر فى المنطقة، فلقد كان المصريون فى حاجة إلى طلب

السلام من الملك التترى تيمورلنك!.

ويذكر المؤرخ الأميركى ويل يورانت Will Durant فى كتابه (قصة الحضارة) أن (ابن خلدون) عرض على (تيمورلنك) ما كتبه عن الأسباب التى حملت التتر على مهاجمة بخارى واجتياح بغداد، وتتلخص فى أن الأمير (جلال الدين بن خوارزم شاه) أساء معاملة سفراء(جنكيز خان) الذى كان يتوق إلى ربط علاقات تجارية مع دار الإسلام.. فعوض أن يقوم جلال الدين بدراسة العرض تسرع إلى قتل السفراء.. ولاشك أن هذا اللقاء التاريخى بين شخصية كبيرة كـ(ابن خلدون) مع شخصية مهمة كـ(تيمورلنك) كان له أثر ملحوظ فى أدبيات العلاقات ين دولة المماليك والمملكة المغربية من جهة وبين الزعامة التتارية من جهة أخرى علاوة على ما خلفه من أصداء هنا وهناك.

***

كانت تلك صورة الحالة السياسية للمجتمع الذى عاصره (ابن خلدون) التى حملتها كتب الرحالة المسلمين، والتى لمسها بنفسه من خلال حياته المضطربة التى جاب فيها عالم الإسلام مَن أقصى الغرب فى الأندلس والمغرب الأقصى إلى أقصى المشرق مزاولاً فى جميع ممالك الإسلام نشاطًا سياسيًا ملحوظًا، إذ تولى أعلى المناصب فى جميع تلك الممالك، وخبر خفايا سياستها وأطلع على دقائق أحوالها.

وكان ذلك مما أكسبه معرفة دقيقة بأحوال العالم الإسلامى كله، بل تجاوز ذلك إلى معرفة ما يحيط بهذا العالم، سواء علي حدوده الغربية فى أوروبا أم فى حدوده الشرقية المتآخمة للإمبراطورية التترية. وكان (ابن خلدون) دائم التأمل فى أحوال ممالك الإسلام التى عايشها

وعرفها من الداخل، وقد رأى كيف تتهاوى هذه الممالك فى الغرب والشرق على السواء، هذا وإن لم تخل من فترات نهضة عابرة تشبه توهج الشمعة قبل انطفائها الأخير، والغريب أن هذه الظاهرة تكررت فى معظم البلاد التى عاش فيها فالأندلس فى ظل (محمد الغنى بالله) فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى كانت تمر بفترة ازدهار لم تلبث مع بداية القرن التاسع أن أفضت إلى تدهور سريع، وهو ما شهده أيضًا فى دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى، إذ أصاب الانحلال هذه الدولة بعد السلطان (أبى الحسن المرينى) آخر ملوكهم العظام، ويتكرر المشهد نفسه فى تونس بعد السلطان (الحفصى) الذى عاش فى ظله، ثم فى مصر التى كان (الناصر محمد بن قلاوون) هو آخر سلاطينها من المماليك العظام، وقد ظلت بقايا ازدهار الدولة ماثلة فى أيام (الظاهر برقوق) ولكنها كانت انتفاضة عابرة لم تحل دون السقوط الذى أعقب وفاته، ومضت دولة المماليك فى احتضار بطئ خلال القرن التاسع الهجرى حتى الفتح العثمانى.

***

(6)
أشهر مؤلفات ابن خلدون

وسط هؤلاء العلماء وفى تلك البيئة العلمية الزاخرة بالمدارس ومعاهد العلم التى أتت على ذكرها كتب رحالة هذا العصر، وفى ظل هذا الوضع السياسى غير المستقر، عاش (ابن خلدون) وتعلم ووضع نفسه على طريق العلماء ونهج نهجهم منذ بداية شبابه، فبدأ بوضع كتابه الأول (لباب المحصل فى أصول الدين) وهو عبارة عن إعادة كتابة لكتاب (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين) لـ(فخرالدين محمد بن عمر الرازى) المعروف بـ(ابن الخطيب) والمتوفى فى سنة 606هـ الذى يعد من أهم كتب علم أصول الدين، وكان قد تعلمه وقرأه على يد أستاذه (أبى عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلى)، شيخ العلوم العقلية فى المغرب فى ذلك الزمن.

الكتاب الأول: وكان (ابن خلدون) قد لاحظ أن كتاب المحصل لـ(فخرالدين الرازى) به (إطنابًا وإسهابًا لا يميل إليه همم أهل عصره (لهذا عمل على اختصاره وتهذيبه)، وهو ما دفع قبله الإمام الكبير (نصير الدين الطوسى) المتوفى فى 672هـ إلى التعليق عليه، حيث رأى أن الكتاب (اسمه غير مطابق لمعناه، وبيانه غير موصل إلى دعواه، وهم يحسبون أنه فى ذلك العلم كاف، وعن أمراض الجهل والتقليد شاف، الحق إن فيه من الغث والسمين ما لا يحصلى والمعتمد عليه فى إصابة اليقين بطائل لا يحظى، بل يجعل طالب الحق بنظره فيه كعطشان يصل إلى السراب ويسير المتحير فى الطرق المختلفة آيسًا من الظفر بالصواب)، لهذا سعى (ابن خلدون) إلى إعادة كتابة الكتاب حتى يقوم

على حد قوله بـ(.. كشف القناع عن وجوه أنظار مخدراته ولبيان الخلل فى مكامن شبهاته، والتدليل على غثه وسمينه، وليبين ما يجب أن يبحث عنه من شكه ويقينه).

ورغم أن الكثيرين من العلماء قدموا شروحًا لهذا الكتاب فإن ما كتبوه كما يرى (نصير الطوسى) لم يجر أكثرهم على قاعدة الإنصاف، ولم تخل بياناتهم عن الميل و(الاعتساف) وهو ما حاول أن يتجنبه (ابن خلدون) عند إعادة كتابته لمؤلف (الرازى) فبجانب سعيه إلى التخلص من الإسهاب والألفاظ التى لا طائل من ورائها، وتهذيب الكتاب واختصاره وصياغة جمله فى إيجاز شديد، أضاف إليه أيضا ما أمكن من شروح الإمام الكبير (نصير الدين الطوسى) خاصة اعتراضاته على بعض ما جاء فى كتاب (الرازى)، بالإضافة إلى بعض آراء (ابن خلدون) الشخصية، وقد اتبع فى ترتيب الكتاب نفس الترتيب والبنيان الذى كتبه به الإمام (فخرالدين الرازى) كاتبه الأصلى، وقد أنهى (ابن خلدون) هذا المؤلف وعمره تسعة عشر عامًا، وكان أول أعماله.

ويشير الدكتور عبدالرحمن بدوى إلى أن ابن خلدون رغم حداثة سنه أدرك بثاقب ذهنه زبدة (المحصل) على ما فيه من عصر وتعقيد، واستطاع أن يستخلصها على هذا النحو. وهو ما كان يعد نوعا من التمرين العقلى لطالب مجتهد محصل أكثر منه تأليفًا ناضجًا.

الكتاب الثانى: وكان كتاب (ابن خلدون) هو (شفاء السائل لتهذيب المسائل) وهو كتاب يتناول أهل الصوفية فى المغرب وأبرز أعلامهم وزهادهم من أهل مدينة فاس ويتناول فيه المذاهب الصوفية كطريق للمعرفة الذوقية والوجدانية من خلال أقوالهم الشارحة.

الكتاب الثالث: أما كتابه الثالث -- وهو الكتاب الذى دخل به (ابن خلدون) التاريخ من أوسع أبوابه- فقد كان كتاب (العبر فى ديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر)، وهو كتابه العمدة الذى ضم خلاص تجارب (ابن خلدون) بوصفه المؤرخ الذى فهم التاريخ بمعناها الحقيقى الشامل، الذى يتلخص فى أن الحدث التاريخى أكبر من أيكون حدثا سياسيًا فقط، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك النفسية أيضًا، وهذا ما دعا (ابن خلدون) إلى الكلام عن مفهوم التاريخ على أنه أشبه بمفهوم الحضارة أى جعله تاريخًا للأمم والشعوب بدلا من سير الملوك والأمراء وطبقات الأعيان، فقد اعتاد المؤرخون حتى ظهور (ابن خلدون) على تناول تاريخ الحكام وسيرهم وما قاموا به من حروب وجهودهم لتوطيد أركان حكمهم بداية من تاريخ توليهم الحكم حتى زوال دولتهم، وقد يشمل الفاطمية، أو الطولونية أو العباسية.. إلخ، وفى أحيان أخرى قد يتناول بالتسجيل التوثيقى سير أهم العلماء أو المفكرين أو أرباب الدولة لحقبة معينة، وكان يغيب عن صفحات تلك الكتابات التاريخية طبيعة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية وتأثير أنظمة الحكم المختلفة على حياة المحكومين وأنشطة حياتهم الاقتصادية والثقافية، وكيف كان يقاوم هؤلاء المحكومين أشكال الاستبداد المختلفة، وطبيعة التطورات والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى تصاحب كل حقبة تاريخية أو قيام دولة من الدولة وعلاقتها بقوة تلك الدولة أو انهيارها.

وقد انعكست هذه الرؤية لمفهوم الكتابة التاريخية بمعناها المتعارف عليه الآن فى كتاب (ابن خلدون) كتاب (العبر فى ديوان المبتدأ والخبر

فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) الذى ينقسم إلى ثلاثة أقسام، يشتمل القسم الأول على مقدمة (ابن خلدون) الشهيرة التى تعد من الأعمال الكبرى فى الفكر الإنسانى على مر العصور، والتى وضع فيها الأسس الأولى لعلم جديد هو علم العمران، الذى هو مزيج من علم السياسة وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع بالمعنى الحديث وتناول فيه بالشرح والتحليل فكرة العصبية كفكرة سياسية وكمفهوم اجتماعى، كما سطر آراءه الاقتصادية والاجتماعية فى أحوال الكسب والمعاش، ونظر للدول وما يطرأ عليها من تغيرات سياسية فى سياق التطور التاريخى لأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وانتهى فى خلاصتها إلى أن الاجتماع البشرى ممثلا فى الدولة هو بمثابة الكائن الحى يولد ثم ينمو ثم ينضج ثم يستهلك نفسه ثم يموت، وحدد لهذا الكائن العضوى عمرًا فى نظره أربعة أجيال

والجيل أربعون عامًا، وربط بين هذا الكائن وبين الظروف المحيطة جغرافية وجوية وإقليمية، وفى القسم الثانى يتناول تاريخ العرب وغيرهم من الشعوب منذ بدء الخليقة إلى القرن الثامن، ويتضمن القسم الثالث تاريخ البربر وهو ينتهى عند ترجمة لحياته بعنوان (التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا).

كتب ومؤلفات أخرى: وهناك إشارات لكتابات أخرى لابن خلدون لكن لم يتم حتى الآن العثور على مخطوطاتها، مثل تلخيصاته لكتب (ابن رشد) التى أشار إليها (ابن بطوطة) فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة)، وإن لم يحدد هذه الكتب التى قام بتلخيصها، وكتاب آخر فى المنطق، وكتاب فى الحساب، وشرح البردة، بالإضافة إلى شرح رجز فى

أصول الفقه لـ(لسان الدين بن الخطيب)، وقد ذكره (شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى) فى (أزهار الرياض فى أخبار عياض) هذا بالإضافة إلى كتاب صغير موجز فى وصف بلاد المغرب أعده بناء على طلب (تيمورلنك) فى 803هـ وعلى الرغم من أن (ابن خلدون) نفسه أشار إلى هذا الكتاب فإنه يبدو أنه لم يكتب منه غير نسخة واحدة تلك التى سلمها لـ(تيمورلنك).

وبالإضافة للإسهامات الفكرية التى تضمنها كتاب العبر فى ديوان المبتدأ والخبر، وبخاصة قسمه الأول المشهور بالمقدمة كان لمجمل أعماله الفكرية الفضل فى الكشف عن الإسهام الفارسى فى مجال المعرفة والعلوم من الإشارة لكتابات الطوسى والرازى وغيرهم، فإذا كانت آسيا الإسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى محكومة بالأتراك والمغول من الوجهة السياسية والعسكرية فإنهم استخدموا اللغة الفارسية كلغة رسمية، كما ازدهر الأدب الفارسى فى بلاطهم، ليس هذا فقط بل إنه كشف أيضا فى كتاباته عن جملة من الاكتشافات العلمية والتكنولوجية التى كان للعرب السبق فى التوصل إليها، فقد أشار فى كتابه (العبر) إلى أن المغاربة فى أواخر القرن السابع الهجرى توصلوا إلى اختراع نوع جديد من الأسلحة النارية تشبه المدفع حيث تحدث دويًا وفرقعة كالرعد وتدك الحصون وتهدمها كالصواعق السماوية، حقيقة أن أهل الصين توصلوا من قديم إلى اختراع الأسلحة النارية، ولكن كان ينقصها قوة الدفع التى يبدو أن المغاربة قد توصلوا إليها لأول مرة باستخدام خليط من النفط وملح البارود أو النشادر والكبريت وحصى الحديد فى درجة حرارة عالية فى شكل كرة محماة تلقى على الهدف فتدمره.

وفى هذا الصدد يروى (ابن خلدون) سلطان المغرب أن (أبويوسف يعقوب المرينى) هاجم مدينة سلجماسة (تافيلالت الحالية قنوب المغرب الأقصى) سنة 672هـ/ 1272م، ونصب عليها هندام (آلة) النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بادئها، فى الوقت الذى لم تعرف فيه أوروبا السلاح النارى إلا بعد ذلك بفترة طويلة تصل إلى أربعة وسبعين عامًا من بدء ظهوره فى المغرب حين كان أول استخدام له فى موقعة كريسى (Crecy) عام 1346 أثناء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا، التى انتصر فيها الإنجليز بسبب توصلهم إلى هذا الاكتشاف.

والخلاصة أن حياة وأعمال (ابن خلدون) وكتاباته لم تكن فقط مجرد تعبير عن تمكنه من أدواته كمؤرخ وعالم استطاع أن يمزج آرائه الفكرية بخبرته العملية كرجل دولة تنقل بين مختلف أرجاء العالم الإسلامى وخبر مشكلات ومؤامرات الحكم والإدارة ولم تكن فقط توثيقًا سعى فيه إلى التزام أكثر درجات الدقة لتاريخ عصره، لكنها كانت إسهامًا علميًا شكل نقلة كيفية سواء فى مجال الكتابة التاريخية بتأسيسه لعلم فلسفة التاريخ، أو بوضع البدايات الأولى لعلم الاجتماع، الذى أطلق عليه العمران البشرى، وهى الإضافة التى سوف تبقى لابن خلدون كعالم عربى مازال حضوره قائمًا وأفكاره مؤثرة، رغم القرون التى مرت على وفاته.

لقد ترك تراثًا مازال تأثيره ممتدًا حتى اليوم، ويعتبر (ابن خلدون) مؤسس علم الاجتماع الحديث.

الجزء الثاني

مذكرات ابن خلدون

المعروفة باسم (ابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)

بقلم ابن خلدون ذاته

(ملحوظة: الصياغة والأسلوب الواردان في الصفحات التالية هي الصيغة التي كتب بها ابن خلدون مذكراته).

نص الرحلة

(1)

نسبه

يقوم ابن خلدون في البداية بتعريف نسبه قائلاً: إن اسمه عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدداً؛ لأن خلدون هذا هو الداخل إلى الاندلس، فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين؛ ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول الكتاب الأول.

يقول ابن خلدون ونسبنا حضرموت، من عرب اليمن، إلى وائل بن حجر، من أقيال العرب، معروف وله صحبة. قال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة: وهو وائل بن حجر ابن سعيد بن مسروق بن وائل بن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن مالك بن شرحبيل بن الحارث بن مالك بن مرة بن جميري بن زيد بن الحضرمي بن عمرو بن عبد الله بن هاني بن عوف بن جرشم بن عبد شمس بن زيد بن لأي بن شبت بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لأي بن قحطان. وابنه علقمة بن وائل وعبد الجبار بن وائل.

وذكره أبو عمر بن عبد البر في حرف الواو من «الاستيعاب»، وأنه

وفد على النبي صلي الله عليه وسلم. فبسط له رداءه، وأجلسه عليه. وقال: «اللهم بارك في وائل بن حجر وولده ولده إلى يوم القيامة».

وبعث معه معاوية بن ابي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن والإسلام، فكانت له بذلك صحابة مع معاوية. ووفد عليه لأول خلافته وأجازه. فرد عليه جائزته ولم يقبلها. ولما كانت واقعة حجر بن عدي الكندي بالكوفة، اجتمع رؤوس أهل اليمن، وفيهم وائل هذا، فكانوا مع زياد بن ابي سفيان عليه، حتى اوثقوه وجاؤوا به إلى معاوية، فقتله، كما هو معروف.

قال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الإشبيليون من ولده، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هاني بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر. قال: وكان من عقبه كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد، وكانا من أعظم ثوار الاندلس.

قال ابن حزم: وأخوه محمد كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون.

وبنو ابي العاصي: محمد، وأحمد، وعبد الله. قال:- وأخوهم عثمان، وله عقب. ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس من تلاميذ مسلمة المجريطي، وهو أبو مسلم عمر بن محمد بن بقي بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل. وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله. قال: ولم يبق من ولد كريب الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كريب- انتهى كلام ابن حزم.

(2)
الدخول إلى الأندلس

يواصل ابن خلدون حديثه عن جده ودخوله للأندلس قائلاً:

ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت، ونشأ بيت بنيه بها، ثم انتقلوا إلى إشبيليه، وكانوا في جند اليمن، وكان لكريب من عقبه وأخيه خالد، الثورة المعروفة بأشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني، ثار على ابن ابي عبدة، وملكها من يده اعواماً، ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج، بإملاء الأمير عبد الله وقتله.

وتلخيص الخبر عن ثورته، على ما نقله ابن سعيد عن الحجاري وابن حيان وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيليه: أن الأندلس لما اضطرب بالفتن أيام الأمير عبد الله تطاول رؤساء إشبيليه إلى الثورة والاستبداد، وكان رؤساء المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بين ابي عبدة، ورئيسهم يومئذ أمية عبد الغفار بن ابي عبدة، وكان عبد الرحمن الداخل ولي أبا عبدة على إشبيلية وأعمال وكان حافدة أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمة. وبين خلدون هؤلاء، ورئيسهم كريب المذكور، وأخوه خالد.

قال ابن حيان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية نهاية في النباهة، ولم أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية.

ثم بيت بني حجاج، ورئيسهم يومئذ عبد الله. قال ابن حيان: هم- يعني حجاج- من لخم، وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل، نابت الفرع بالرياسة السلطانية والعلمية. فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين والمائتين وكان الأمير عبد الله قد ولى على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمد وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر، وثاروا بمحمد بن الأمير عبد الله وبصاحبهم، وهم يمالئهم على ذلك، ويكيد بابن الأمير عبد الله. وحاصروهما في القصر، حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه، واستبد أمية إشبيلية، ودس عبد الله بن حجاج من قتله، وأقام أخاه إبراهيم مكانه، وضبط إشبيلية، واسترد أولاد بني خلدون وبنى حجاج، ثم ثاروا به، وهمَّ يقتل أبنائهم فراجعوا طاعة وحلفوا له، فأطلق ابناءهم فانتفضوا ثانية. وحاربوه فاستمات وقتل حرمه وخيوله، وأحرق موجوده. وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر، وعاثت العامة رأسه. وكتبوا إلى الأمير عبد الله بأنه خلع فقتلوه، فقبل منهم مداراة، وبعث على هشام بن عبد الرحمن من قرابته، فاستبدوا عليه، وفتكوا بابنه، وتولي كبيرهم، كريب بن خلدون، واستقل بإمارتها.

وكان إبراهيم بن حجاج بعدما قتل أخوه عبد الله- على ما ذكره ابن سعيد الحجاري- سمت نفسه إلى التفرد، فظاهر ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رندة، فكان له منه ردء، ثم انصرف إلى مدرارة كريب بن خلدون وملابسته، فردفه في أمره، وشركه في سلطانة، وكان في كريب تحامل على الرعية وتعصب، فكان يتجهم لهم، ويغلظ عليهم، وابن حجاج يسلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة عنده، فانحرفوا عن كريب إلى إبراهيم. ثم دس إلى الأمير عبد

الله يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية، لتسكن إليه العامة، فكتب إليه العهد بذلك. وأطلع عليه عرفاء البلد، مع ما اشربوا من حبه، والنفرة عن كريب، ثم أجمع الثورة، وهاجت العامة بكريب فقتلوه، وبعث برأسه إلى الأمير عبد الله، واستقر بإمارة إشبيلية.

قال ابن حيان: وحصن مدينة قرمونة من أعظم معاقل الأندلس، وجعلها مرتبطاً لخيوله، وكان ينتقل بينها وبين إشبيلية، واتخذ الجند ورتبهم طبقات، وكان يصانع الأمير عبد الله بالأموال والهدايا، ويبعث إليه المدد في الصوائف. وكان مقصوداً ممدحاً، فصده أهل البيوتات فوصلهم، ومدحه الشعراء فأجازهم، وانتجعه أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد، وقصده من بين سائر الثوار، فعرف حقه، وأعظم جائزته.

ولم يزل بيت بني خلدون بإشبيليه- كما ذكره ابن حيان وابن حزم وغيرهما- سائر أيام بني أمية إلى أزمان الطوائف، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة.

ولما علا كعب بن عباد بإشبيلية، واستبد على أهلها، استوزر من بني خلدون هؤلاء، واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الزلاقة كانت لابن عباد وليوسف بن تاشفين على ملك الجلالقة، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء، ثبتوا في الجولة مع ابن عباد فاستلحموا في ذلك الموقف. ثم كان الظهور للمسلمين، ونصرهم الله على عدوهم. ثم تغلب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلت دولة العرب وفنيت قبائلهم.

(3)
الحالة السياسية في افريقيا

ويواصل ابن خلدون حديثه قائلاً:

ولما استولى الموحدون على الأندلس، وملكوها من يد المرابطين، وكان ملوكهم عبد المؤمن وبنيه. وكان الشيخ أبو حفص كبير هنتاتة زعيم دولتهم، وولوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً، ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض ايامهم، ثم ابنه أبا زكريا كذلك، فكلن لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمهات، ويعرف بابن المحتسب، للأمير أي زكريا، يحيي بن عبد الواحد بن ابي حفص أيام ولايته عليهم، جارية من سبي الجلالقة، اتخذها أم ولد، وكان له منها ابنه أبو يحيي وكريا ولي عهده الهالك في أيامه، وأخواه: عمر وأبو بكر، وكانت تلقب ام الخلفاء. انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية إفريقية سني العشرين والستمائة. ودعا لنفسه بها، وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين. واستبد بإفريقية، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس، وثار عليهم ابن هود، ثم هلك واضطربت الأندلس، وتكالب الطاغية عليها، وردد الغزو إلى القرنتيرة هي بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان، وثار أبن الأحمر بغرب الأندلس من حصن أرجونة، يرجو التماسك لما بقى من رمق الأندلس. وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية. وهم بنو الباجي، وبنو الجد، وبنو الوزير، وبنو سيد الناس، وبنو خلدون. وداخلهم في الثورة على ابن هود، وأن يتجافوا للطاغية عن

الفرنتيرة، ويتمسكوا بالجبال الساحلية وامصارها المتوعرة، من مالقة إلى غرناطة إلى المرية، فلم يوافقوة على بلدهم.

وكان مقدمهم أبو مروان الباجي، فنابذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي، وبايع مرة لابن هود، ومرة لصاحب مراكش من بنى عبد المؤمن، ومرة للأمير أبي زكريا صاحب افريقية. ونزل غرناطة. وأتخذها داراً لملكه، وبقيت الفرتيرة وامصارها ضاحية من ظل الملط، فخشي بنو خلدون سوء العاقبة مع الطاغية، وارتحلوا من اشبيلية إلى العدوة، ونزلوا سبته، واجلب الطاغية على تلك الثغور، فملك قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة وجيان وما إليها، في مدة عشرين سنة. ولما نزل بنو خلدون سبتة أصهر اليهم العزفي بأبنائه وبناته، فاختلط بهم، وكان له معهم صهر مذكور. وكان جدنا الحسن بن محمد، وهو سبط ابن المحتسب، قد أجاز فيمن أجاز معهم، فذكر سوابق سلفه عند الأمير أي زكرياء، فقصده وقدم عليه فاكرم قدومه. وارتحل إلى المشرق، فقضى فرضه. ثم رجع ولحق بالأمير أي زكريا على بونة، فأكرمه، واستقر في ظل دولته، ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق، وأقطع الإقطاع. وهلك هنالك، فدفن ببونة. وخلف ابنه محمدا أبا بكر، فنشأ في جو تلك النعمة ومرعاها وهلك الأمير أبو زكريا ببونة سنة سبع وأربعين، وولي ابنه المستنصر محمد، فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه. ثم ضرب الدهر ضرباته، وهلك المستنصر سنة خمسة وسبعين، وولى ابنه يحيي، وجاء أخوه الأمير أبو إسحاق من الأندلس، بعد أن كان فر أمام أخيه المستنصر. فخلع يحيي واستقل هو بملك افريقية، ودفع جدنا أبا بكر محمداً إلى عمل الأشغال في الدولة، على سنن عظماء الموحدين فيها قبله؛ من الانفراد بولاية العمال، وعزلهم وحسبانهم، على الجباية، فاضطلع بتلك الرتبة. ثم عقد

السلطان أبو إسحاق لابنه محمد. وهو جدنا الأقرب. على حجابة ولى عهده ابنه ابي فارس أيام أقصاه إلى بجاية. ثم استعفى جدنا من ذلك فأعفاه، ورجع إلى الحضرة. ولما غلب الدعي بن ابي عمارة على ملكهم بتونس، اعتقل جدنا أبا بكر محمدا، وصادره على الأموال، ثم قتله خنقاً في محبسه. وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان ابي إسحاق وابنائه إلي بجاية، فقبض عليه ابنه أبو فارس، وخرج في العساكر هو وأخوته لمدافعة الدعي ابن ابي عمارة، وهو يشبه بالفضل ابن المخلوع، حتى إذا استلحموا بمرماجنة خلص جدنا محمد مع ابي حفص/ ابن الأمير ابي زكريا من الملحمة، ومعهما الفارازاي وأبو الحسين ابن سيد الناس، فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان. وكان الفازازي من صنائع المولى ابي حفص، وكان يؤثره عليهم، فأما أبو الحسين ابن سيد الناس فاستنكف من ايثار الفازازي عليه، بما كان اعلى رتبة منه ببلدة إشبيلية، ولحق بالمولى ابي زكريا الأوسط بتلمسان، وكان من شأنه ما ذكرناه. وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير ابي حفص، وسكن لإيثار الفازازي. ولما استولى أبو حفص على الأمر رعى له سابقته، وأقطعه، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب، واستكفى به في الكثير من أهل ملكه، ورشحه لحجابته من بعد الفازازي. وهلك، فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة، واصطفى لحجابته محمد بلن إبراهيم الدباغ كاتب الفازازي، وجعل محمد بن خلدون رديفاً في حجابته. فكان كذلك إلى أن هلك السلطان وجاءت دولة الأمير خالد، فأبقاه على حاله من التجلة والكرامة، ولم يستعمله ولا عقد له، إلى أن كانت دولة ابي يحيي بن اللحياني، فاصطنعه، واستكفى به عندما نبضت عروق التغلب للعرب؛ ودفعه إلى حماية الجزيرة من دلاج، أحد

بطون سليم المواطنين بنواحيها، فكانت له في ذلك اثار مذكورة. ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى المشرق، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة، وأظهر التوبة والأقلاع، وعاود الحج متنفلاً سنة ثلاث وعشرين، ولزم كسر بيته، وابقى السلطان أبو يحيي عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الإقطاع والجراية، ودعاه إلى حجابته مراراً، فامتنع.

أخبرني محمد بن منصور بن مزني، قال: لما هلك الحاجب محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار، سنة سبع وعشرين وسبعمائة، استدعى السلطان جدك محمد بن خلدون، وأراده على الحجابة، وأن يفوض اليه في أمره، فأبى واستعفى، فأعفاه، ووامره فيمن يوليه حجابته، فأشار عليه بصاحب الثغر: بجاية، محمد بن ابي الحسين بن سيد الناس، لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس، وبإشبيلية من قبل. وقال له: هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذوين، فعمل السلطان على إشارته، واستدعى ابن سيد الناس، وولاه حجابته. وكان السلطان أبو يحيي إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها، وثوقاً بنظرة واستنامة اليه، إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين، ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر، عن طريقة السيف والخدمة، إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليها في حجر ابي عبد الله الزبيدي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده، في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن ابيه حسين وعمه حسن، الوليين الشهيرين. وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، والزمه ابنه، وهو والدي رحمه الله فقراً وتفقه، وكان مقدماً في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه.

(4)
نشأته ومشايخه (شيوخه)

ويتحدث ابن خلدون عن نشأته ومشيخته وحاله فيقول:-

أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن ايفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب ابي عبد الله محمد بن سعد بن بزال الأنصاري، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها،-وكان إماماً في القراءات، لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه ففي القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرني، ومشيخته فيها، وأسانيده معروفة. وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في أحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى، ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه، وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي؛ اللامية في القراءات، والرائية في الرسم، وأخبرني بهما عن الأستاذ ابي العباس البطرني وغيره من شيوخه؛ وعرضت عليه كتاب التقصي لأحاديث الموطأ لأبن عبد البر، حذا به حذو كتابة التمهيد على الموطأ، مقتصراً على الأحاديث فقط. ودارست عليه كتباً دمة، مثل كتاب التسهيل لأبن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه، ولم أكملهما بالحفظ، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي،

وعلى استاذي تونس: منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل. ومنهم أبو عبد الله بن محمد بن الشواش الزرزالي. ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار؛ كان ممتعاً في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي، وهو حي لهذا العهد بتونس.

ومنهم: إمام العربية والأدب بتونس، أبو عبد الله محمد بن بحر؛ لزمت مجلسه، وأفدت عليه، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان. وأشار على بحفظ الشعر، فحفظت كتاب الأشعار الستة، والحماسة للعلم، وشعر حبيب، وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب الأغاني. ولازمت ايضاً مجلس إمام المحدثين بتونس؛ شمس الدين ابي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي، صاحب الرحلتين؛ وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج، إلا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد؛ وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضاً من الأمهات الخمس؛ وناولني كتباً كثيرة في العربية والفقه، وأجازني إجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في برنامجه، أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغماز الخزرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجياني، وأبو القاسم محمد القصير؛ قرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي؛ مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه. وكنت في خلال ذلك انتاب مجلس شيخنا الإمام، قاضي الجماعة ابي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي محمد رحمه الله عليهما. وأفدت منه، وسمعت عليه اثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت

له فيه طرق عالية، عن ابي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه- إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم سمعت عليه، وكتب لي، وأجازني: ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان ابي الحسن، عندما ملك إفريقية ستة وأربعين، جماعة من أهل العلم، وكان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فمنهم شيخ الفتيا بالمغرب، وإمام مذهب مالك، أبو عبد الله محمد بن سليم السطي؛ فكنت انتاب مجلسه، وأفدت عليه.

ومنهم كاتب السلطان ابي الحسن، وصاحب علامته التي توضع اسافل مكتوباته، إمام المحدثين والنحاة بالمغرب، أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الخضرمي، لازمته، وأخذت عنه، سماعاً، وإجازة، الأمهات الست، وكتاب الموطأ، والسير لابن إسحاق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتباً كثيرة شذت عن حفظي. وكانت بضاعته في الحديث وافرة، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة الاف سفر؛ في الحديث، والفقه، والعربية، والأدب، والمعقول، وسائر الفنون؛ مضبوطة كلها، مقابلة. ولا يخلو ديوان منها عن ثبت بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتى الفقه، والعربية، الغريبة الإسناد إلى مؤلفيها في هذه العصور. منهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي، إمام المقرئين بالمغرب. قرأت عليه القرآن العظيم، بالجمع الكبير بين القراءات السبع، من طريق ابي عمرو الداني، وابن شريح، في ختمة لم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي.

اصله من تلمسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التعاليم، وحذق فيها؛ وأظله الحصار الكبير يتلمسان أمام المائة السابعة، فخرج منها، وحج، ولقي اعلام المشرق يومئذ، فلم يأخذ عنهم؛ لأنه كان مختلطاً بعارض عرض في عقله. ثم رجع من المشرق، وأفاق، وقرأ المنطق والأصلين، على الشيخ ابي موسي عيسى ابن الإمام، وكان قرأ بتونس، مع أخيه ابي زيد بن عبد الرحمن، على تلاميذ ابن زيتون الشهير بالذكر؛ وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المعقول والمنقول، فقرأ الآبلي على ابي موسى منهما كما قلناه. ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب، لأن سلطانها يومئذ، أبو حمر من ولد يغمراسن بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير بالذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقام فيها وأرفع، ثم صعد إلى جبال الهساكرة، بعد وفاة الشيخ، باستدعاء على بن محمد بن تروميت، ليقرأ عليه، فأفاده، وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد، واسكنه بالبلد الجديد، والآبلي معه.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن، ونظمه في جملة العلماء بمجلسه، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية، ويبثها بين أهل المغرب، حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر امصارها، والحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه.

ولما قدم على تونس في جملة السلطان ابي الحسن، لزمته، وأخذت عنه الأصلين، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية، والتعليمية؛ وكان رحمه الله، يشهد لي بالتبرير في ذلك.

وممن قدم في جملة السلطان ابي الحسن: صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان امالقي. كان يكتب عن السلطان، ويلازم خدمة ابي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان اسفل المراسيم والمخاطبات، وبعضها يضعه السلطان بخطه.

وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب، في براعه خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر، والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان. فلما قدم علينا بتونس، صحبته، واغتبطت به، وإن لم أتخذه شيخاً، لمقاربة السن، فقد أفقدت منه كما افدت منهم.

وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحوي شاعر تونس في قصيدة على روي النون، يرغب منه تذكرة شيخة ابي محمد بن عبد المهيمن في إيصال مدحه إلى السلطان ابي الحسن، في قصيدته على روي الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلكان.

وذكر في مدح ابن رضوان اعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي:

عرفت زماني حبن أنكرت عرفاني
وايقنت أن لاحظ في كف كيوان

وأن لا اختيار في اختيار مقوم
وأن لا قراع بالقران لأقراني

وأن نظام الشكل اكمل نظمه
لأضعف قاض في الدليل يرجحان

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين:

هم القوم كل القوم، أما حلومهم

فأرسخ من طودي تنير وشهلان

فلا طيش يغروهم وأما علومهم

فأعلامها تهديك من غير نيران

بفقه يشيم الأصبحي صباحه

وأشهب منه يستدل بشهبان

وحسن جدال للخصوم ومنطق

يجيئان في الأخفى بأوضح برهان

سقت روضة الآداب منهم سحائب

سحبن على سحبان أذيال نسيان

فلم يبق نأس ابن الإمام شماخة

على مدن الدنيا لأنف يلمسان

ويعد نوي السطي لم تسط فاسه

بفخر على بغداد في عصر بغداد

وبالآبلى استسقت الأرض وبلها

ومستوبل ما مال عنه لأظعان

وهامت على عبد المهيمن تونس

وقد ظفرت منه بوصل وقربان

وما علقت مني الضمائر غيره

وإن هويت كلا بحب ابن رضوان

ويواصل ابن خلدون مذكراته فيقول:

ثم كانت واقعى العرب على السلطان بالقيروان، في فاتحة تسع وأربعين، فشغلوا عن ذلك، ولم يظفر هذا الرحوي بطلبته. ثم جاء الطاعون الجارف، فطوى البساط بما فيه، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس، لخلة كانت بينه وبين والدي، رحمه الله، أيام قدومهم علينا.

فلما كانت واقعة القيروان، ثار أهل تونس بمن كان عندهم من اشياع السلطان ابي الحسن، فاعتصموا بالقصبة دار الملك، حيث كان ولد السلطان وأهله، وانتفض عليه ابن تافراكين، وخرج من القيروان إلى العرب، وهم يحاصرون السلطان، وقد اجتمعوا على ابن ابي دبوس، وبايعوا له، كما مر في أخبار السلكان، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس، فحاصر القصة، وامتنعت عليه. وكان عبد المهيمن يوحد ثورة أهل تونس، ووقوع الهيعة، خرج من بيته إلى دارنا، فاختفى عند ابي رحمه الله، وأقام مختفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر. ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة، وركب البحر إلى تونس، وفر ابن تافراكين إلى المشرق. وخرج عبد المهيمن من الأختفاء، وإعاده السلطان إلى ما كان عليه، من وظيفة العلامة والكتابة، وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على موالاته، ومما كتبت إليه وحفظته من خطه:

لحمد ذوي المكارم قد ثناني ... فعال شكره ابدا عناني

جزى الله ابن خلدون حياة ... منعمة وخلداً في الجنان

فكم أولى ووالي من جميل ... وبر بالفعال وباللسان

وراعي الخضرمية في الذي قد	حبا من وده من الحنان
أبا بكر ثناءك طول دهري	اردد باللسان وبالجنان
وعن علياك ما امتدت حياتي	أكافح بالحسام وباللسان
فمنك أفدت خلا لست دهري	أوى عن حبه أثني عناني

وهؤلاء الأعلام اللذين ذكرهم الرحوي في شعره، هم سباق الحلبة في مجلس السلطان ابي الحسن، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب. فأما ابنا الإمام منهم فكانا أخوين من أهل برشك، من أعمال تلمسان، واسم اكبرهما أبو زيد عبد الرحمن، واسم الأصغر، أبو موسى عيسى، وكان ابوهما إمام ببعض مساجد برشك، واتهمه المتغلب يومئذ على البد زيرم بن حماد، بأن عنده وديعة من المال لبعض أعدائه، فطالبه بها، فلاذ بالامتناع، وبيته زيرم، لينتزع المال من يده، فدافعه وقتل، وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في المئة السابعة، وأخذا العلم بها عن تلاميذ ابن زيتون، وتفقها على أصحاب ابي عبد الله بن شعيب الدكالي، وانقلبا إلى المغرب بحظ وافر من العلم. وأقاما بالجزائر يبثان بها العلم، لامتناع برشك عليهما من أجل «ضرر» زيرم المتغلب عليها، والسلطان أبو يعقوب يومئذ، صاحب المغرب الأقصى من بني مرين، جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور، وقد بث جيوشه في نواحيها، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمل مغراوة بشلف، وحاضرته مليانة، فبعث عليها الحسن بن علي بن ابي الطلاق من بني عسكر، وعلي بن محمد الخيري من بني ورتاجن، ومعهما- لضبط الجباية واستخلاص الأموال- الكاتب منديل

بن محمد الكناني. فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر، واحتلا بمليانة. فحليا بعين منديل الكناني، فقربهما واصطفاهما، وأتخذهما لتعليم ولده محمد. ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب، بمكانه من حصار تلمسان، سنة خمس وسبعمائة على يد خصي من خصيانه: طعنه فأشواه، وهلك. وقام بالملك بعده حافده أبو ثابت، بعد خطوب ذكرناها في أخبارهم، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان يومئذ أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن، وأخيه ابي حمو، العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان، ورد أعمالهم عليهم، فوفى لهم بذلك، وعاد إلى المغرب. وارتحل ابن ابي الطلاق، والخيري، والكناني من مليانة راجعين إلى المغرب، ومروا بتلمسان، ومع الكناني هذان الأخوان، فأوصلهما إلى أبو حمو، وأثنى عليهما، وعرفه بمقامها في العلم، فاغتبط بها أبو حمر، واختط لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان وأقاما عنده على هدي أهل العلم وسننهم؛ وهلك أبو حمو، فكانا كذلك مع ابنه ابي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن «المريني» إلى تلمسان، وملكها عنوة، سنة سبع وثلاثين، وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب، اثبتت لهما في نفس السلطان عقيدة صالحة، فاستدعاهما لحين دخوله، وأدنى مجلسهما، وأشاد بتكرمتها، ورفع محلهما على أهل طبقتهما. وصار يجمل بهما مجلسه، متى مر بتلمسان، أو وفدا عليه في الأوقات التي يفد فيها أعيان بلدهما. ثم استنفرهما للغزو، وحضرا معه واقعة طريف، وعادا إلى بلدهما. وتوفى أبو زيد منهما إثر ذلك، وبقى أبو موسى متبوئا ما شاء من ظلال تلك الكرامة.

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى افريقية سنة ثمان وأربعين، كما

مر في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرماً، موقراً، عالي المحل. قريب المجلس منه. فلما استولى على افريقية، سرحه إلى بلده، فأقام بها يسيراً، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين. وبقي اعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة، ومتوقلين قللها طبقاً عن طبق إلى هذا العهد.

وأما السطي، واسمه محمد «بن علي» بن سليمان، من قبيلة سطة، من بطون أوربة بنواحي فاس. نزل ابوه سليمان مدينة فاس، ونشأ محمد بها، وأخذ العلم عن الشيخ ابي الحسن الصغير إمام المالكية بالمغرب، والطائر الذكر، وقاضي الجماعة بفاس، وتفقه عليه. وكان أحفظ الناس لمذهب مالك وأفقهم فيه. وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسراوته، وبعد شأوه في الفضل، يتشوف إلى تنويه مجلسه بالعلماء، واختار منهم جماعة لصحابته ومجالسته. كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان. وقدم علينا بتونس في جملته، وشهدنا وفور فضائله، وكان في الفقه من بينها لا يجاري، حفظاً وفهماً، عهدي به وأخي محمد رحمه الله يقرأ عليه من كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي، وهو يصححه عليه من إملائه وحفظه، في مجالس عديدة. وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حملة من الكتب. وحضر مع السلطان ابي الحسن، واقعة القيروان، وخلص معه إلى تونس، وأقام بها نحواً من سنتين.

وانتفض المغرب على السلطان، واستقل به ابنه أبو عنان. ثم ركب «السلطان» أبو الحسن في اساطيله من تونس آخر سنة خمسين، ومر ببجاية، فأدركه الغرق في سواحلها، فغرقت اساطيله، وغرق أهله، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم. وألقاه البحر ببعض الجزر

هناك، حتى استنفذه منه بعض اساطيله، ونجا إلى الجزائر بعد آن تلف موجوده، وهلك الكثير من عياله واصحابه. وكان من أمره ما مر في أخباره.

وأما الآبلي واسمه محمد بن إبراهيم، فمنشؤه بتلمسان، وأصله من جالية الأندلس، من أهل آبلة، من بلاد الجوف منها، أجاز ابوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان، وولده في جندهم، وأصهر إبراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته، فولدت له محمداً هذا. ونشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي، فنشأ له بذلك ميل إلى انتحال العلم عن الجندية التي كانت منتحل ابيه «وعمه». فلما يفع وأدرك، سبق إلى ذهنه محبة التعاليم، فبرع فيها، واشتهر. وعكف الناس عليه في تعلمها وهو في سن البلوغ. ثم أطال السلطان يوسف بن يعقوب علي تلمسان، وجثم عليها يحاصرها. وسير بعوثه إلى الأعمال، فافتتح أكثرها، وكان إبراهيم الآبلي قائداً بهنين؛ مرسى تلمسان في لمة من الجند، فلما ملكها يوسف بن يعقوب، اعتقل من وجد بها من شيع ابن زيان، واعتقل إبراهيم الآبلي فيهم، وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف بن يعقوب يسترهن ابناءهم فتسور الأسوار، وخرج إلى ابيه، فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً. واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بتاوريرت، فكرة المقام على ذلك، ونزع عن طوره، ولبس المسموح، وسار قاصداً الحج. وانتهى إلى رباط العباد مختفياً في صحبة الفقراء، فوجد هنالك رئيسا من أهل كربلاء ثم من بني الحسين، جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه، وكان معقلاً؛ فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب، وشدة هيبته، غلب عليه اليأس من مرامه، ونزع عن

ذلك، واعتزم الرجوع إلى بلده، فسار شيخنا محمد بن إبراهيم في جملته.

ويواصل ابن خلدون حديثه في مذكراته قائلاً:

قال لي رحمه الله: وبعد حين انكشف لي حاله، وما جاء له، واندرجت في جملة أصحابه وتابعه. قال: وكان يتلقاه في كل بلد من «أصحابه و» اسياعه وخدمة من يأتيه بالأزواد، والنفقات من بلده، إلى أن كربنا البحر من تونس إلى الإسكندرية.

قال: واشتدت على الغلمة في البحر، واستحييت من كثرة الأغتسال؛ لمكان هذا الرئيس، فأشار على بعض بطانته بشرب الكافور، فاغترفت منه غرفة، فشربتها فاختلطت. وقدم الديار المصرية على تلك الحال، وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد، وابن الرفعة، وصفي الدين الهندي، والتبريزي، وابن البديع، وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول، فلم يكن قصاراه إلا تمييز اشخاصهم، إذا ذكرهم لنا؛ لما كان به من الاختلاط. ثم حج مع ذلك الرئيس، وسار في جملته إلى كربلاء، فبعث معه من أصحابه من أوصله إلى مأمنه من بلاد زواوة من أطراف المغرب. وقال لي شيخنا رحمه الله: كان معي دنانير كثيرة تزودتها من المغرب، واستبطها في جبة كنت ألبسها؛ فلما نزل بي ما نزل انتزعها مني حتى إذا بعث أصحابه يشيعونني إلى المغرب، دفعها إليهم، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن، أعطوني إياها واشهدوا على بها في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم؛ ثم فقارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار، فعاد إلى تلمسان، وقد أفاق من اختلاطه، وانبعثت همته إلى تعلم العلم. وكان

مائلاً إلى العقليات، فقرأ المنطق على أبو موسى ابن الإمام، وجملة من الأصلين، وكان أبو حمو صاحب تلمسان يومئذ قد استفحل ملكه، وكان ضابطاً لأموره، وبلغه عن شيخنا تقدمه في علم الحساب، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة عماله. وتفادي شيخنا من ذلك، فأكرهه عليه، فأعمل الحيلة في الفرار منه، ولحق بفاس أيام السلطان ابي الربيع، وبعث فيه أبو حمو، فاختفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود، خلوف المغيلي، فاستوفى عليه فنونها، وحذف. وخرج متوارياً من فاس، فلحق بمراكش، أعوام العشر والسبع مائة. ونزل على الإمام ابي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علماً وحالاً، فلزمه، وأخذ عنه، وتضلع من علم المعقول والتعاليم والحكمة، ثم استدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن تروميت ليقرأ عليه، وكان ممرضاً في طاعته للسلطان، فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة، قرأ عليه فيها وحصل. واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثت إفادته، واستفادته، وعلي بن محمد في ذلك على تعظيمه، ومحبته، وامتثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته بين القبائل. لوما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن ترومبيت من جبله، نزل الشيخ معه، وسكن بفاس، وانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه، واشتهر ذكره؛ فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقى أبا موسى ابن الأمام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدم في العلوم. وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه، كما ذكرنا، فاستدعاه من مكانه بفاس، ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه، وعكف على التدريس والتعليم، ولازم صحابة السلطان، وحضر معه واقعة طريف، وواقعة القيروان بإفريقية، وكانت قد حصلت بينه وبين والدي

رحمه الله صحابة، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه، فلزمت مجلسه، وأخذت عنه، وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم. ثم قرأت المنطق، وما بعده من الأصلين، وعلوم الحكمة، وعرض اثناء ذلك ركوب السلطان اساطيله من تونس إلى المغرب، وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا، فأشرنا عليه بالمقام، وثبطناه عن السفر، فقبل، وأقام. طالبنا به السلطان أبو الحسن، فأحسنا له العذر. وتجافى عنه، وكان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه. وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل في غشيان مجلسه، والأخذ عنه؛ فلما هلك السلطان أبو الحسن بجبال هنتاته، وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله، وملك تلمسان من بني عبد الواد؛ كتب فيه يطلبه من صاحب تونس، وسلطانها يومئذ أبو إسحاق إبراهيم بن السلطان ابي يحيي، في كفالة شيخ الموحدين ابي محمد بن تافراكين، فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في اسطول السلطان الذي جاء فيه السفير ومر بيجاية، ودخلها وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول، ثم ارتحل، ونزل بمرسي هين؛ وقدم على السلطان يتلمسان، وأحله محل التكرمة، ونظمه في طبقة اشياخه من العلماء. وكان يقرأ عليه، ويأخذ عنه، إلى أن هلك بفاس، سنة سبع وخمسين وسبعمائة. وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأما عبد المهيمن كاتب السلطان ابي الحسن، فأصله من سبتة، وبيتهم بها قديم، ويعرفون ببني عبد المهيمن؛ وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي، ونشأ الغافقي. ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد،

صاحب الأندلس، سبته ونقل بني العزفي، ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالته، وأخذ عن مشيختها. واختص بالأستاذ ابي إسحاق الغافقي. ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد، صاحب الأندلس. سبتة ونقل بني العزفي، مع جملة اعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبدالمهيمن، وابنه عبد المهيمن، فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن ابي جعفر بن الزبير، ونظرائه، وتقدم في معرفة كتاب سيبويه، وبرز في علو الإسناد، وكثرة المشيخة. وكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق، فاستكتبه رئيس الاندلس يومئذ، الوزير أبو عبد الله بن الحكيم الرندي، المستبد على السلطان المخلوع من بني الأحمر، فكتب عنه، ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه. مثل المحدث الرحالة ابي عبد الله بن رشيد الفهري، وابي العباس أحمد بن العزفي، والعالم الصوفي المتجرد، ابي عبد الله بن محمد بن خميس التلمساني، وكانا لا يجاريان البلاغة والشعر إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة. فلما تكب الوزير ابن الحكيم، وعادت سبتة إلى طاعة بني مرين عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها، ثم ولي السلطان أبو سعيد، وغلب عليه ابنه أبو علي، واستبد بحمل الدولة. تشوف إلى استدعاء الفضلاء، وتجمل الدولة بمكانهم، فاستقدم عبد المهيمن من سبتة، واستكتبه، سنة اثنتي عشرة؛ ثم خالف علي ابيه سنة اربه عشرة، وامتنع بالبلد الجديد، وخرج منها إلى سجلماسة بصلح عقده مع ابيه، فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن، واتخذه كاتباً، إلى أن دفعة لرياسة الكتاب، ورسم علامته في الرسائل والأوامر، فتقدم لذلك سنة ثمان عشرة، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان ابي سعيد وابنه ابي

الحسن. وسار مع ابي الحسن إلى افريقية، وتخلف عن واقعة القيروان بتونس، لما كان به علة النقرس. فلما كانت الهيعة بتونس، ووصل خبر الواقعة، وتحيز اشياع السلطان إلى القصبة، مع حرمه، تسرب عبد المهيمن في المدينة، منتبذا عنهم، وتوارى في بيتنا، خشية ان يصاب معهم بمكروه. فلما انجلت تلك الغيابة وخرج السلطان من القيروان إلى سوسة، وركب منها البحر إلى تونس، أعرض عن عبد المهيمن، لما سخط غيبته عن قومه بالقصبة، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبد الله بن ابي مدين، وقد كانت مقصورة من قبل علي هذا البيت، وأقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة أشهر. ثم اعتبه السلطان، ورضي عنه، وأعاد إليه العلامة كما كان، وهلك لأيام قلائل بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين. ومولده سنة خمس وسبعين من المائة قبلها، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة فليطالعه هناك من أحب الوقوف عليه.

ويواصل ابن خلدون سرد مذكراته فيقول:

وأما ابن رضوان الذي ذكره الرحوي في قصيدته، فهو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري؛ اصله من الأندلس، نشأ بمالقة، وأخذ عن مشيختها، وحذق في العربية والأدب، وتفنن في العلوم، ونظم ونثر، وكان مجيداً في الترسيل، وحسناً في كتابة الوثائق؛ وارتحل بعد واقعة طريف، ونزل بسبتة، ولقي بها السلطان أبا الحسن، ومدحه، وخطيب السلطان، وكان يستنيبه في القضاء والخطابة؛ ثم نظمه في حلبة الكتاب بباب السلطان؛ واختص بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتاب، والأخذ عنه، إلى أن رحل السلطان إلى افريقية، وكانت واقعة القيروان،

وانحصر بقصبة بتونس من انحصر بها، من اشياعه مع اهله وحرمه. وكان السلطان قد تخلف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمه، فجلى عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات وتولى كبر ذلك، فقام فيه احسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان، فرعي له حق خدمته تأنيساً، وقرباً، وكثرة اتعمال، إلى أن ارتحل من تونس في الأسطول، إلى المغرب سنة خمسين كما مر. واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل وخلف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له، فأقام كذلك اياماً. ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل بن السلطان ابي يحيي. ونجا أبو الفضل إلى ابيه، ولم يطق ابن رضوان الرحلة معه، فأقام بتونس حولاً، ثم ركب البحر إلى الأندلس، وأقام بالمرية مع جملة «من» هنالك من أشياع السلطان ابي الحسن: كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هنتانة، كافلاً لجرم السلطان ابي الحسن، وابنه اركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل فخلصوا إلى الأندلس، ونزلوا بالمرية، وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس، فلحق بهم ابن رضوان، وأقام معهم. ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس إلى أن يستكتبه فامتنع، ثم هلك السلطان أبو الحسن، وارتحل مخلفة الذين كانوا بالمرية. ووفدوا على السلطان ابي عنان. ووفد معهم ابن رضوان، فرعى له وسائله في خدمة ابيه، واستكتبه، واختصه بشهود مجلسه، مع طلبة العلم بحضرته؛ وكان محمد بن ابي عمرو يومئذ رئيس الدولة، ونجي الخلوة، وصاحب العلامة، وحسبان الجباية والعساكر، وقد غلب على هوى السلطان، واختص به، فاستخدم له ابن رضوان حتى غلق منه بدمه. ولاية وصحبة، وانتظاماً في السمر، وغشيان المجالس الخاصة، وهو مع ذلك يدنيه من السلطان، وينفق

سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم، فحلي بعين السلطان، ونفقت عنده فضائله. فلما سار ابن ابي عمرو في العساكر إلى بجاية، سنة أربعة وخمسين انفراد ابن رضوان بقلم الكتاب عن السلطان. ثم رجع ابن ابي عمرو، وقد سخطه السلطان، فأقصاه إلى بجاية وولاه عليها، وعلى سائر اعمالها، وعلى حرب الموحدين بقسطنطينة وافرد ابن رضوات بالكتابة، وجعل اليه العلامة، كما كانت لابن ابي عمرو، فاستقل بها، موفر الإقطاع، والإسهام والجاه؛ ثم سخطه آخر سبع وخمسين، وجعل العلامة لمحمد بن ابي القاسم بن ابي مدين، والإنشاء والتوقيع لأبي إسحاق إبراهيم بن الحاج الغرناطي، فلما كانت دولة السلطان ابي سالم، جعل العلامة لعلي بن محمد بن سعود صاحب ديوان العساكر، والإنشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون، ثم هلم أبو سالم سنة اثنتين وستين، واستبد الوزير عمر بن عبد الله على من كفله من أبنائهم، فجعل العلامة لابن رضوان، سائر أيامه، وقتله عبد العزيز بن السلطان ابي الحسن، واستبد بملكه، فلم يزل ابن رضوان على العلامة، وهلك عبد العزيز، وولي ابنه السعيد في كفالة الوزير ابي بكر بن غازي بن الكاس، وابن رضوان على حاله؛ ثم غلب السلطان احمد على الملك، وانتزعه من السعيد وابي بكر بن غازي، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس، مستبداً عليه، والعلامة لابن رضوان، كما كانت، إلى أن هلك بازمور في بعض حركات السلطان أحمد إلى مراكش، لحصار عبد الرحمن بن بويفلوسن ابن السلطان ابي علي سنة.

وكان في جملة السلطان ابي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء

المغرب وأعيانه، هلك كثيرون منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في اسطوله لما غرق، وتخطت النكبة «منهم» آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم. فممن حضر معه بإفريقية من العلماء، شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي، شيخ القراءات بالمغرب؛ أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس، وروى عن الرحالة أبي عبد الله محمد بن رشيد ، وكان إماما في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى. وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود، وكان يصلي بالسلطان التراويح، ويقرا عليه بعض الأحيان حزبه. وممن حضر معه بافريقية، الفقيه بو عبد الله محمد بن الصباغ من اهل مكناسة. «كان» مبرزا في المنقول والمعقول وعارفا بالحديث وبرجاله، وإماما في معرفة كتاب الموطا واقرائه؛ اخذ عنه العلوم العقلية، فاستفد بقية طلبه عليه، فبرز آخرا؛ واختاره والسلطان لمجلسه، فاستدعاه، ولم يزل معه إلى ان هلك غريقا في ذلك الاسطول. ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد النور، من اعمال ندرومة، ونسبة في صنهاجة كان مبررا في الفقه على مذهب الامام مالك بن مالك بن انس تفقه فيه على الأخوين ابي زيد، وابي موسى ابني الإمام، وكان من جلة اصحابهما.

ويواصل ابن خلدون حديثه قائلاً:

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان، رفع من منزلة ابني الإمام، واختصهما بالشورى في بلدهما. وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق، ويعمر بهم مجلسه؛ فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجلس، فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا، فإدناه، وقرب مجلسه، وولاه قضاء عسكره،

ولم يزل في جملته إلى أن هلك في طاعون بتونس سنة تسع وأربعين.
وكان ..«قد» خلف بتلمسان أخاه علياً رفيقاً في دروس ابن الإمام، إلا أنه اقصر باعاً منه في الفقه. فلما خلع السلكان أبو عنان طاعة ابيه، السلطان ابي الحسن، ونهض إلى فاس، استنفره في جملته. وولاه قضاء مكناسة، فلم يزل بها، حتى إذا تغلب عمر بن عبد الله على الدولة كما مر، نزع إلى قضاء فرضه، فسرحه. وخرج حاجاً سنة اربع وستين، فلما قدم على مكه، وكان به بقية مرض، هلك في طواف القدوم. وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب في طواف للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ، يلبغا الخاصكي، فأحسن خلافته فيه، وولاه من وظائف الفقهاء ما سد به خلته، وصان عن سؤال الناس وجهه، وكان له- عفا الله عنه- كلف بعمل الكيمياء، تابعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله. فلم يزل يعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه، إلى أن دعته الضرورة للترحل عن مصر، ولحق ببغداد. وناله مثل ذلك، فلحق بماردين، واستقر عند صاحبها، وأحسن جوره، إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه، والبقاء لله «وحده».

ومنهم شيخ التعاليم أبو عبد الله محمد بن النجار من أهل تلمسان؛ أخذ العلم بلده عن مشيختها، وعن شيخنا الآبلي، وبرز عليه. ثم ارتحل إلى المغرب، فلقي بسبته امام التعاليم، أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المجصطي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن الإمام ابي العباس بن البناء، وكان إمامتً في علوم النجامة وأحكامها، وما يتعلق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير، واستخلصه الدولة. فلما هلك أبو تاشين، وملك

السلطان أبو الحسن، نظمه في جملته وأجرى رزقه، فحضر معه بإفريقية، وهلك في الطاعون.

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب من أهل فاس، برع في اللسان، والأدب، والعلوم العقلية، من الفلسفة، والتعاليم والطب وغيرها؛ ونظمه السلطان أبو سعيد في خلبة الكتاب، وأجرى عليه الرزق مع الأطباء، لتقدمه فيهم، فكان كاتبه، وطبيبه، وكذا مع السلطان ابي الحسن بعده، فحضر بإفريقية، وهلك بها في ذلك الطاعون.

وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين، وكانت له إمامة في نقد الشعر، وبصر به.

ومنهم صاحبنا الخطيب أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق، من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ ابي مدين بالعباد، ومتوارثين خدمة تربته، من لدن جدهم خادمه في حياته. وكان جده الخامس أو السادس، واسمه أبو بكر بن مرزوق، معروفاً بالولاية فيهم. ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان، سلطان تلمسان من بني عبد الواد، في التربة بقصره، ليدفن بإزائه، متى قدر بوفاته. ونشأ محمد هذا بتلمسان. ومولده- فيما اخبرني- سنة عشر وسبعمائة، وارتحل مع ابيه إلى المشرق. وجاور ابوه بالحرمين الشريفين، ورجع هو إلى القاهرة، فأقام بها. وقرأ على برهان الدين الصفاقسي المالكي وأخيه. وبرع في الطلب والرواية، وكان يجيد الخطين؛ ثم رجع سنة خمس وثلاثين إلى المغرب، ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه في تلمسان، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً؛ وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم بالعباد. وتوفى، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان مه. وسمعه يخطب

على المنبر. ويشيد بذكره، والثناء عليه، فحلى بعينه، واختصه، بلقاء الفضلاء، والأكابر، والأخذ عنهم؛ والسلطان في كل يوم يزيده رتبة؛ وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس. ثم سفر عنه، بعد أن ملك إفريقية، إلى ابن أدفونش ملك قشتالة، في تقرير الصلح، واستنقاذ ابنه ابي عمر تاشفين. كان اسر يوم طريف، فغاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان. ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية، جاؤوا في السفارة عن ملكهم، ولقيهم خبر واقعة القيروان، بقسطنطينة، من بلاد إفريقية، وبها عامل السلطان وحاميته، فثار أهل قطنطينة هم جميعاً، ونهبوهم، وخطبوا للفضل ابن السلطان ابي يحيي، وراجعوا دعوة الموحدين، واستدعوه فجاء اليهم، وملك البلد. وانطلق ابن مرزوق عائداً إلى المغرب، مع جماعة من الأعيان، والعمال، والسفراء عن الملوك، ووفد على السلطان ابي عنان بفاس مع امه حظية ابي الحسن واثيرته، كانت راحلة إليه، فإدركها الخبر بقسنطينة. وحضرت الهيعة. واتصل بها الخبر يتولب ابنها ابي عنان على ملك ابيه، واستيلائه على فاس، فرجعت إليه، وابن مرزوق في خدمتها، ثم طلب اللحاق بتلمسان، فسرحوه إليها وأقام بالعباد مكان سلفه، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيي بن يغمراسن بن زيان، قد بايع له قبيلة بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصبة، كما مر في اخبارهم، وانصرفوا إلى تلمسان، فوجدوا بها أبا سعيد عثمان بن جرار، من بيت ملوكهم، قد استعمله عليها السلطان أبو عنان، عند انتفاضه على ابيه، ومسيرة إلى فاس. فانتفض ابن جرار من بعده، ودعا

لنفسه. وصمد إليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما. فملكوا تلمسان من يد ابن جرار. وحبسوه ثم قتلوه، واستبد أبو سعيد بملك تلمسان. وأخوه أبو ثابت يرادفه. وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس. وغرق اسطوله، ونجا هو إلى الجزائر، فاحتل بها، وأخذ في الحشد إلى تلمسان، فرأى أبو سعيد أن يكف غربه عنهم، بمواصلة تقع بينهما، واختار لذلك الخطيب ابن مرزوق، فاستدعاه وأسر اليه بما يلقيه عنه للسلطان ابي الحسن، وذهب لذلك على طريق الصحراء. واطلع أبَو ثابت وقومهم على الخبر، فنكروه على أبي سعيد، وعاتبوه، فبعثوا صقير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق، فجاء به، وحبسوه اياماً. ثم أجازوه البحر إلى الأندلس، فنزل السلطان ابي الحجاج بغرناطة، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان ابي الحسن بسبتة إثر واقعة طريف، فرعي له أبو الحجاج ذمة تلك المعرفة، وأدناه. واستعمله في الخطابة بجامعة بالحمراء، فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة اربع وخمسين بعد مهلك ابيه، واستيلائه على تلمسان وأعمالهم، فقدم عليه ورعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي، ويدرس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم، ثم بعثه إلى تونس عام وملكها سنة ثمان وخمسين، ليخطب له ابنه السلطان ابي يحيي، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس. ووشي إلى السلطان ابي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك، ورجع السلطان من قسنطينة، فثار أهل تونس بما كان بها من عمالة وحاميته. واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهدية، فجاء، وملك البلد، وركب القوم الأسطول، ونزلوا بمراسي تلمسان وأوعز السلطان (أبو عنان)

باعتقال ابن مرزوق، وخرج لذلك يحيي بن شعيب من مقدمي الجنادرة، ببابه، فلقيه بتاسالة، فقيده هنالك، وجاء به، فاحضره السلطان وقرعه، ثم حبسه مدة، وأطلقه بين يدي مهلكه؛ واضطربت الدولة بد موت السلطان ابي عنان، وبايع بنو مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق. وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السعيد، غربه إليها أخوه السلطان أبو عنان، مع بني عمهم، ولد السلطان أبو سالم بالأندلس، غربه إليها اخوه السلطان أبو عنان، مع بني عمهم، ولد السلطان ابي علي بعد وفاة السلطان ابي الحسن، وحصولهم جميعاً في قبضته. فلما توفى، أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب، فمنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس، مستبداً على ابن السلطان ابي الحجاج، فلحق هو بإشبيلية، من دار الخرب ونزل على بطره، ملكهم يومئذ، فهيأ له السفين، وأجازه إلى العدوة، فنزل بجبل الصفيحة، من بلاد غمارة، وقام بدعوته بنو مثنى، وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم، حتى تم أمره، واستولى على ملكه، في خبر طويل، ذكرناه في أخبار دولتهم. وكان ابن مرزوق يداخله، وهو بالأندلس، ويستخدم له، ويفاوضه في أموره، وربما كان يكاتبه، وهو بجبل الصفيحة، ويداخل زعماء قومه، في الأخذ بدعوته. فلما ملك السلطان أبو سالم، رعى له تلك الوسائل أجمع، ورفعه على الناس، وألقى عليه محبته، وجعل زمام الأمور بيده، فوطئ الناس عقبه، وغشى اشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه اليه، فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة، ونقموه على السلطان وتربصوا به، حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان. وقتله عمر بن عبد الله آخر اثنتين وستين، وحبس ابن مرزوق وأغري به سلطانه الذي نصبه:

محمد بن عبد الرحمن بي ابي الحسن، فامتحنه، واستصفاه، ثم اطلقه، بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله، فمنعه منهم. ولحق بتونس، سنة اربع وستين، ونزل على السلطان ابي إسحاق، وصاحب دولته المستبد عليه، أبي محمد بن تافراكين، فأكرموا نزله، وولوه الخطابة، بجامع الموحدين بتونس، وأقام بها، إلى أن هلك السلطان أبو إسحاق سنة سبعين، وولى ابنه خالد. وزحف السلطان أبو العباس، حافد السلطان ابي يحيي، مقره بقسنطينة إلى تونس، فملكها، وقتل خالداً، سنة اثنتين وسبعين. وكان ابن مرزوق يستريب منه، لما كان يميل، وهو بفاس، مع ابن عمه ابي عبد الله محمد، صاحب بجاية، ويؤثره عند السلطان ابي سالم عليه، فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس، فوجم لها، وأجمع الرحلة إلى المشرق، وسرحه السلطان، فركب السفين، ونزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة، ولقى أهل العلم، وامراء الدولة، ونفقت بضائعه عندهم، واوصلوه إلى السلطان، وهو يومئذ الأشراف، فكان يحضر مجلسه، وولوه الوظائف العلمية، وكان ينتجع منها معاشه. وكان الذي وصل حبله بالسلطان استداره محمد بن اقبغا اص، لقيه أول قدومه، فحلى بعينه، واستظرف جملته، فسعى له، وأنجحت سعايته، ولم يزل مقيماً بالقاهرة، موقر الرتبة، معروف الفضيلة، مرشحاً لقضاء المالكية، ملازماً للتدريس في وظائفه، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين.

هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان ابي الحسن، من أشياخنا، وأصحابنا؛ وليس موضوع الكتاب الإطالة، فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف.

(5)
ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى المغرب، والكتابة عن السلطان ابي عنان

يواصل ابن خلدون سرد مذكراته قائلاً:

لم أزل منذ نشأت، وناهزت مكباً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور، وجميع المشيخة، وهلك ابواي، رحمهما الله. ولزمت مجلس شيخنا ابي عبد الله الآبلي، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين، إلى أن شدوت بعض الشيء، واستدعاه السلطان أبو عنان، فارتحل اليه، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس، إلى كتابة العلامة عن سلطانة ابي إسحاق. وقد نهض إليهم من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد، حافد السلطان أبي يحيي في عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك، فأخرج ابن تافراكين سلطانه أبا إسحاق مع العرب، أولاد ابي الليل، وبث العطاء في عسكره، وعمر له المراتب والوظائف. وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله بن عمر بالاستزادة من العطاء، فعزله، وأدالني منه، فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع ..«الحمد لله والشكر لله»، بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة أو مرسوم؛ وخرجت معهم اول سنة ثلاث وخمسين. وقد كنت منطوياً على مفارقتهم، لما

اصابني من الاستيحاش لذهاب اشياخي، وعطلتي عن طلب العلم. فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم، وصدني عن ذلك أخي وكبيري الفضلاء صحابة واشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم، وصدني عن ذلك أخي وكبيري محمد، رحمه الله. فلما دعيت إلى هذه الوظيفة، سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك؛ فإنا لما خرجنا من تونس، نزلنا بلاد هوراة، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض، بفجص مرماجنة، وانهزم صفنا، ونجوت أنا إلى ابة فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاتي، من كبراء المرابطين. ثم تحولت إلى تبسة، ونزلت بها على محمد بن عبدون، صاحبها، فأقمت عنده ليالي حتى هيأ لي الطريق، وبذوق لي مع رفيق من العرب وسافرت إلى قفصة. وأقمت بها اياماً اترصد الطريق، حتى قدم علينا بها الفقيه محمد ابن الرئيس منصور بن مزني، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب. وكان هو بتونس، فلما حاصرها الأمير أبو زيد، خرج إليه، فكان معه. ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عنان ملك المغرب، نهض إلى تلمسان، فملكها، وقتل سلطانها، عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت، وأنه انتهي إلى المدية، وملك بجاية من يد صاحبها، الأمير ابي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيي، راسله عندما أطل على بلده، فسار إلأيه، ونزل له عنها، وصار في جملته، وولى أبو عنان على بجاية عمر بن علي شيخ بني وطاس، من بني الوزير شيوخهم. فلما بلغ هذا الخبر، أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس، ومر بقفصة، فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى

الزاب، فرافقته إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك، ونزل هو ببعض قري الزاب تحت جراية أخيه، إلى أن انصرم الشتاء.

ويواصل ابن خلدون حديثه قائلاً:

وكان أبو عنان لما ملك بجاية، ولى عليها عمر بن علي بن الوزير، من شيوخ بني وطاس، وجاء فارح، مولى الأمير ابي عبد الله لنقل حرمه وولده، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي؛ فقتله في مجلسه. ووثب هو البلد، وبعث إلى الأمير أبي زيد، يستدعيه من قسنطينة، فتشمت رجالات البلد فيما بينهم خشية من سطوة السلطان. ثم ثاروا بفارح فقتلوه، وأعادوا دعوة السلطان كما كانت، وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس، بحياتن بن عمر بن عبد المؤمن، شيخ بني ونكاسن من بني مرين، فملكوه قيادتهم، وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم. فأخرج لوقته حاجبه محمد بن ابي عمرو، واكثف له الجند، وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته. وارتحلت أنا من بسكرة، وافدا على السلطان أبي عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء، وتلقاني من الكرامة بما لم احتسبه، وردني معه إلى بجاية. فشهدت الفتح، وتساتلت وفود إفريقية إليه، فلما رجع السلطان، وفدت معهم، فنالني من كرامته وإحسانه ما لم احتسبه، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي. ثم انصرفت مع الوفود، ورجع ابن ابي عمرو إلى بجاية، فأقمت عنده، حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخمسين؛ وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس، وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكرى عنده، وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين بتونس عني، ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه، سنة خمس وخمسين، ونظمني في

اهل مجلسه العلمي، والزمني الشهود الصلوات معه؛ ثم استعملني في كتابته، والتوقيع بين يديه، على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي. وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة؛ وحصلت الإفادة منهم على البغية.

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفار، من أهل مراكش إمام القراءات لوقته؛ أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب، كبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري، سند أهل المغرب، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي. ومنهم: قاضي الجماعة بفاس، أو عبد الله محمد المقري، صاحبنا من أهل تلمسان. أخذ العلم بها عن أبي عبد الله السلاوي، ورد عليها من المغرب خلواً من المعارف، ثم دعته إلى التحلي بالعلم، فعكف في بيته على مدارسة القرآن، فحفظه، وقرأه بالسبع، ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية، فحفظه ثم على مختصري ابن الحاجب في الفقه، والأصول، فحفظهما؛ ثم لزم الفقيه عمران المشدالي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين وتفقه عليه، وبرز في العلوم، إلى حيث لم تلحق غايته. وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسته بتلمسان، فقدمه للتدريس بها، يضاهي به أولاد الإمام. وتفقه عليه بتلمسان جماعة؛ كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المقري هذا.

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الآبلي إلى تلمسان، عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها، وكان أبو عبد الله السلاوي قد قتل يوم فتح تلمسان، قتله بعض أشياع السلطان، لذنب اسلفه في خدمة أخيه ابي

علي بسجلماسة، قبل انتحاله العلم، وكان السلطان يعتده عليه، فقتل بباب المدرسة، فلزم أبو عبد الله المقري بعدده مجلس شيخنا الآبلي، ومجالس ابني الإمام، واستبحر في العلوم وتفنن.

ولما انتفض السلطان أبو عنان، سنة تسع وأربعين وخلع أباه، ندبه إلى كتاب البيعة، فكتبها وقرأه على الناس في يوم مشهود، وارتحل مع السلطان إلى فاس؛ فلما ملكها، عزل قاضيها الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرازق وولاه مكانه، فلم يزل قاضياً بها، إلى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية، فعزله، وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي آخر سنة ست وخمسين؛ ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس. فامتنع من الرجوع، وقام السلطان لها في ركائبه، ونكر على صاحب الأندلس -«ابن الأحمر» تمسكه به، وبعث إليه فيه يستقدمه، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان ابي عنان، وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة، -«ومنهم» القاضيان بغرناطة؛ شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي، شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً، ورياسة، وإمام اللسان حوكاً ونقداً، في نظمه ونثره.

وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البلفيقي من أهل المرية، شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس، وسيد أهل العلم بإطلاق، والمتفنن في أساليب المعارف، وآداب الصحابة للملوك فمن دونهم؛ فوفداً به على السلطان شفيعين على عظيم تشوقه للقائهما، فقبلت الشفاعة، وانجحت الوسيلة.

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتهما، سنة سبع وخمسين، وكان يوماً مشهوداً. واستقر القاضي المقري في مكانه، بباب السلطان، عطلا

من الولاية والجراية. وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان، بسبب خصومة وقدت بينه وبين أقاربه، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي، فتقدم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه، بأن يسحبه إلى مجلس القاضي، حتى أنفذ فيه حكمه، فكان الناس يعدونها محنة.

ثم ولاه السلطان، بعد ذلك، قضاء العساكر في دولته، عندما ارتحل إلى قسنطينة، فلما افتتحها، وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين، اعتل القاضي المقري في طريقه، وهلك عند قدومه بفاس.

ومنهم صاحبنا الإمام العالم الفذ، فارس المعقول والمنقول، صاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالغلوي، نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى الغلوين؛ وكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم، وربما يغمز فيه بعض الفجرة، ممن لا يزعه دينه، ولا معرفته بالأنساب، فيعد من اللغو، ولا يلتفت إليه.

نشأ هذا الرجل بتلمسان، وأخذ العلم عن مشيختها، واختص بأولاد الإمام، وتفقه عليهما في الفقه، والأصول والكلام، ثم لزم شيخنا أبا عبد الله الآبلي. وتضلع من معارفه، فاستبحر، وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه؛ ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه، وأفاد منه، واستعظم رتبته في العلم، وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله، ويعرف حقه، حتى لزعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه فصل التوصف من كتاب الإشارات لابن سينا، بما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي، وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص كتب ارسطو لابن رشد، ومن الحساب والهيئة، والفرائض، علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة. وكانت له في

كتب الخلافيات يد طولي، وقدم عالية، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله، وأوجب حقه وانقلب إلى تلمسان، وانتصب لتدريس العلم وبثه، فملا المغرب معارف وتلاميذ، إلى اضطراب المغرب، بعد واقعة القيروان؛ ثم هلك السلطان أبو الحسن، وزحف ابنه أبو عنان، إلى تلمسان، فملكها، سنة ثلاث وخمسين، فاستخلص الشريف أبا عبد الله، واختاره لمجلسه العلمي، مع من اختار من المشيخة. ورحل به إلى فاس، فتبرم الشريف من الاغتراب، وردد الشكوى فأحفظ السلطان بذلك، وارتاب به. ثم بلغه أثناء ذلك أن عثمان بن عبد الرحمن، سلطان تلمسان، أوصاه على ولده، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من أهل تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة، وسخط الشريف بذلك ونكبه، وأقام في اعتقاله اشهراً، ثم أطلقه أول ست وخمسين وأقصاه، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده إلى مجلسه، إلى أن هلك السلطان، آخر تسع وخمسين. وملك أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين، واستدعى الشريف من فاس، فسرحه القائم بالأمر يومئذ، الوزير عمر بن عبد الله، فانطلق إلى تلمسان، وتلقاه أبو حمو براحتيه، وأصهر له في ابنته، فزوجها إياه، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه. وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين. وأخبرني رحمه الله، أن مولده سنة عشر.

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيي البرجي من برجة الأندلس. كان كاتب السلطان ابي عنان، وصاحب الإنشاء والسر في دولته، وكان مختصاً به، وأثير لديه. وأصله من برجه الأندلس، نشأ بها، واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ، وسمع، وتفقه على مشيخة

الأندلس واستبحر في الأدب، وبرز في النظم والنثر. وكان لا يجاري في كرم الطباع، وحسن المعاشرة، ولين الجانب، وبذل البشر والمعروف. وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين والسبعمائة، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان ابي يحيي، منفرداً بملكها، على حين أقفرت من رسم الكتابة عن السلطان، إلى أن هلك الأمير أبو زكرياء، ونصب ابنه محمد مكانه، فكتب عنه على رسمه، ثم هلك السلطان أبو يحيي، وزحف السلطان أبو الحسن إلى إفريقية، واستولى على بجاية، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان، كما تقد م في أخباره.

فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان وأقام بها، واتصل خبرة بأبي عنان، ابن السلطان ابي الحسن، وهو يومئذ أميرها. ولقيه، فوقع من قلبه بمكان، إلى أن كانت واقعة القيروان.

وخلع أبو عنان، واستبد بالأمر، فاستكتبه وحمله معه إلى المغرب، ولم يسم به إلى العلامة، لأنه آثر بها محمد بن أبي عمرو، بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم. وربى محمد بداره، فولاه العلامة، والبرجي مرادف له في رياسته، إلى أن انقرضوا جميعاً. وهلك السلطان أبو عنان، واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدمناه، فنقل البرجي من الكتابة، واستعمله في قضاء العساكر، فلم يزل على القضاء، إلى أن هلك.

ومنهم، شيخنا المعمر الرحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق، شيخ وقته جلالة، وتربية، وعلماً، وخبرة بأهل بلده، وعظمة فيهم. نشأ بفاس، وأخذ عن مشيختها، وارتحل إلى تونس، فلقي القاضي أبا إسحاق بن عبد الرفيع، والقاضي أبا عبد الله النفزاوي، وأهل طبقتهما. وأخذ

عنهم، وتفقه عليهم، ورجع إلى المغرب. ولازم سنن الأكابر والمشايخ، إلى أن ولاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس، فأقام على ذلك، إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان، بعد واقعة القيروان، وخلعه اباه، فعزله بالفقيه ابي عبد الله المقري، وأقام عطلاً في بيته.

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحليق بمجلسه، والإفادة منهم، استدعة شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرازق، فكان يأخذ عنه الحديث، ويقرأ عليه القرآن برواياته، في مجلس خاص إلى أن هلك، رحمه الله، بين يدي مهلك السلطان ابي عدنان. إلى آخرين، من أهل المغرب والأندلس، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه، وأجازني بالإجازة العامة.

(6)
حدوث النكبة من السلطان ابي عنان

يقول ابن خلدون:

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان، آخر سنة ست وخمسين، وقربني وأدناني، واستعملني في كتابته، حتى تكدر جوي نده، بعد أن كان لا يعبر عن صفائه، ثم اعتل السلطان، آخر سبع وخمسين، وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم. وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك، من غيرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه، حتى أنمى إليه بعض الغواة، أن صاحب بجاية، معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزير الكبير، عبد الله بن علي، فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه. وكان فيما أنمي إليه، أني داخلته في ذلك، فقبض علي، وامتحنني وحبسني، وذلك في ثامن عشر صفر، سنة ثمان وخمسين.

ثم أطلق الأمير محمداً، وما زلت أنا في اعتقاله، إلى أن هلك. وخاطبته بين يدي مهلكه، مستعطفاً بقصيدة أولها:

على أي حال لليالي أعاتب	واي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح	وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل	تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في الشوق:

سلوتهم إلا ادكار معاهد لها في الليالي الغابرات غرائب

وإن نسيم الريح منهم يشوقني إليهم وتصيبني البروق اللواعب

وهي طويلة، نحو مائتي بيتاً، ذهبت عن حفظي، فكان لها منه موقع، وهش لها. وكان بتلمسان فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقة الوجع. وهلك لخمس عشرة ليلة، في رابع وعشري ذي الحجة خاتم تسع وخمسين. وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن بن عمر إلى اطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع علي، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي، وعاملني بوجوه كرامته ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتفض عليه بنو مرين، وكان ما قدمناه في اخبارهم.

(7)
الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر، والإنشاء

يقول ابن خلدون

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب ملكه، ونزل بجبل الصفحة من بلاد غمارة. وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس، فبث دعوته سراً، واستعان بن علي أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فخملت الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأن يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عمر، وسلطانه السعيد ابن أبي عنان، بالبلد الجديد، فقصدني ابن مرزوق في ذلك، وأوصل إلى كتاب السلطان أبي سالم بالحض على ذلك، وإجمال الوعد فيه، وألقى على جمله، فنهضت به وتقدمت إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا؛ وبعث ابن مرزوق إلى الحسن بن عمر، يدعوا إلى طاعة السلطان أبي سالم، وقد ضجر من الحصار، فبادر إلى الإجابة. واتفق رأي بني مرين على الانفضاض عن منصور بن سليمان، والدخول إلى البلد الجديدة، فلم تم عقدهم على ذلك نزعت إلى السلطات أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس، المستبد بعد ذلك يملك المغرب على سلطانه، وكان ذلك النزوع مبدأ

حظه، وفاتحة رياسته، بسعايتي له عند السلطان، فلما قدمت على السلطان بالصفيحة، بما عندي من أخبار الدولة، وما أجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان، وبالموعد الذي ضربوه لذلك، واستحثثته فارتحل، ولقينا البشير بإجفال منصور بن سليمان، وفراره إلى نواحي بادس، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عمر دعوة السلطان أبي سالم ثم لقيتنا، بالقصر الكبير، قبائل السلطان، وعساكره، على راياتهم، ووزير منصور بن سليمان، وهو مسعود بن رحو بن ماساي، فتلقاه السلطان بالكرامة كما يجل له، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن علي بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته، لقيه بسبتة، وقد غربه منصور بن سليمان إلى الأندلس، فاستوزره واستكفاء.

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر، صعد على فاس، ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه، منتصف شعبان ستين وسبعمائة، فرعي لي السابقة، واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء عنه، والإنشاء لمخاطبته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة.

ثم أخذت نفسي بالشعر، فانثال علي منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور.

ثم غلب ابن مرزوق على هواه، وانفرد بمخالطته، وكبح الشكائم عن قربه، فانقبضت، وقصرت الخطو، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة

سره، وإنشاء مخاطباته ومراسمه.

ثم ولاني آخر الدولة خطة المظالم، فوفيتها حقها، ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه. ولم يزل ابن مرزوق آخذا في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسه، إلى أنتقض الأمر على السلطان بسببه. وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك، فصار إليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان في ذلك هلاكه، على ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما قام الوزير عمر بالأمر، أقرني على ما كنت عليه، ووفر إقطاعي، وزاد في جرايتي، وكنت أسمو، بطغيان الشباب، إلى أرفع مما كنت فيه، وأدل في ذلك بسابقة مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحكم عقدها بيني وبينه، وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية، فكان ثالث أثافينا، ومصقلة فكاتبنا. واشتدت غيرة السلطان لذلك كما مر، وسطا بنا، وتغافل عن عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية، ثم حملني الإذلال عليه أيام سلطانه، وما ارتكبه في حقي من القصور بي عما أسمو إليه، إلى أن هجرته، وقعدت عن دار السلطان، مغاضبا له، فتنكر لي، وأقطعني جانبا من الأعراض، فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية. وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم يتلمسان، والمغرب الأوسط فمنعني من ذلك، أن يغتبط أبو حمو صاحب تلمسان بمكاني، فأقيم عنده. ولج في المنع من ذلك، وأبيت أنا إلا الرحلة، واستجرت في ذلك برديفه وصديقه، الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، ودخلت علية يوم الفطر، سنة ثلاثة وستين. فأنشدته:

هنيئا بصوم لا عداه قبول ... وبشرى بعيد أنت فيه منيل

وهنئتها من عزة وسعادة ... تتابع أعوام بها وفصول

سقى الله دهرت أنت إنسان عينه ... ولا مس ربعا في حماك محول

فعصراك ما بين الليالي مواسم ... لها غرر وضاحة وحجول

وجانبك المأمول للجود مشرع ... يحوم عليه عالم وجهول

عساك، وإن ضن الزمان منولي ... فرسم الأماني من سواك محيل

أجرني فليس الدهر لي بمسالم ... إذا لم يكن لي في ذراك مقيل

وأولني الحسنى بما أنا آمل ... فمثلك يولي راجيا وينيل

ووالله ما رمت الترحل عن قلي ... ولا سخطة للعيش فهو جزيل

ولا رغبة عن هذه الدار إنها ... لظل على هذا الأنام ظليل

ولكن نأى بالشعب عني حبائب ... شجاهن خطب للفراق طويل

بهيج بهن الوجد أني نازح ... وأن فؤادي حيث هن حلول

عزيز عليهن الذي قد لقيته ... وأن اغترابي في البلاد يطول

توارث بأنبائي البقاع أنني ... تخطفت أو غالت ركابي غول

ذكرتك يا مغني الأحبة والهوى ... فطارت بقلبي أنه وعويل

وحييت عن شوق رباك كأنما ... يمثل لي نؤي بها وطلول

أحبائنا والعهد بيني وبينكم ... كريم وما عهد الكريم يحول

إذا أنا لم ترضى الحمول مدامعي

فلا قربتني للقاء حمول

إلام مقامي حيث لم ترد العلى ... مرادي ولم تعط القياد ذلول

أجاذب فضل العمر يوما وليلة ... وساء صباح بينها وأصيل

ويذهب بي ما بين يأس ومطمع	زمان بنيل المعلوات بخيل
تعللني عنه أمان خوادع	ويؤسسني ليان منه مطول
أما لليالي لا ترد خطوبها	ففي كبدي من وقعهن فلول
يروعني من صرفها كل حادث	تكاد له صم الجبال تزول
أداري على الرغم العدى لا لريبة	يصانع واش خوفها وعذول
وأغدو بأشجاني عليلا كأنما	تجود بنفسي زفرة وغليل
وإنسي وإن أصبحت في دار غربة	تحيل الليالي سلوتي وتديل
وصدتني الأيام عن خير منزل	عهدت به أن لا يضام نزيل
لأعلم أن الخير والشر ينتهي	مداه وأن الله سوف يديل
وإني عزيز بابن ماساي مكثر	وإن هان أنصار وبان خليل

فأعانني الوزير مسعود عليه، حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العدول عن تلمسان، في أي مذهب أردت، فاخترت الأندلس، وصرفت ولدي وأمهم إلى أخوالهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة، فاتح أربع وستين. وجعلت أنا على طريقي في الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبي سالم بفاس، وأقام عنده، حلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة، من جهة وزيرة أبي عبد الله بن الخطيب، وما كان بيني وبينه من الصحابة، فكنت أقوم بخدمته، وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة. ولما أجاز، باستدعاء الطاغية لاسترجاعه ملكه، حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيمن ترك من عياله، وولده بفاس، خير

خلف، في قضاء حاجاتهم، وإذرار أرزاقهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم. ثم فساد ما بين الطاغية وبينه، قبل ظفره بملكه، برجوعه عما اشترطه له، من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بأجلابه، ففارقه إلى بلد المسلمين، ونزل بأسجة. وكتب إلى عمر بن عبد الله يطلب مصرا ينزله، من أمصار الأندلس الغريبة، التي كانت ركابا لملوك المغرب في جهادهم، وخاطبني أنا في ذلك، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر، حتى تم قصده من ذلك. وتجافي عن رندة وأعمالها، فنزلها وتملكها، وكانت دار هجرته، وركاب فتحه، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين، واستوحشت أنا من عمر، إثر ذلك كما مر. وارتحلت إليه، معولا على سوابقي عنده، فغرب في المكافأة كما نذكر (إن شاء الله تعالى).

(8)
الرحلة إلى الأندلس

ويواصل ابن خلدون مذكراته فيقول:

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس، بعثت بأهلي ولدي إلى أحوالهم بقسنطينة، وكتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس، من حقدة السلطان أبي يحيي، وأني أمر على الأندلس، وأجيز إليه من هنالك. وسرت إلى سبتة فرضة المجاز، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني، ذو النسب الواضح، السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية، وأكرمهم بنو العزفي أولا وصاهروهم. ثم عظم صيتهم في البلد، فتنكروا لهم. وغربهم يحيي العزفي آخرهم إلى الجزيرة، اعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق، فأسروهم. وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم، رعاية لشرفهم، فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه، وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار، ورجعوا إلى سبتة. وانقرض بنو العزفي ودولتهم، وهلك والد الشريف، وصار هو إلى رياسة الشورى. ولما كانت واقعة القيروان، وخلع أبو عنان أباه، واستولى على المغرب، وكان بسبتة عبد الله بن علي الوزير، واليا من قبل السلطان أبي الحسن، فتمسك بدعوته، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان، وبث فيهم الشريف دعوته. فثاروا بالوزير وأخرجوه، ووفدوا على أبي عنان، وأمكنوه من بلدهم، فولى عليها من

عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي، كافل تربيته في صغره، وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبتة، فلم يكن يقطع أمر دونه. ووفد على السلطان بعض الأيام، فتلقاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء، ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته. وكان معظما، وقور المجلس، هش اللقاء، كريم الوفادة، متخليا بالعلم والأدب، منتحلا للشعر، غاية في الكرم وحسن العهد، وسذاجة النفس. ولما مررت به سنة أربعة وستين، أنزلني ببينه إزاء المسجد الجامع، وبلوت منه ما لا يقدر مثله من الملوك، وأركبني الحراقة ليلة سفري، يباشر دحرجتها إلى الماء بيده، إغرابا في الفضل والمساهمة. وخططت بجيل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب. ثم خرجت منه إلى غرناطة، وكتبت إلى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني. وليلة بت بقرب غرناطة على بريد منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنئني بالقدوم ويؤنسني، ونصه:

حللت حلول الغيث بالبلد المحل

على الطائر الميمون والرحب والسهل

يمينا بمن تعنو الوجوه لوجهه

من الشيخ والطفل المهدا والكهل

لقد نشأت عندي للقاك غبطة

تنسى اغتباطي بالشبيبة والأهل

وودي لا يحتاج فيه لشاهد

وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

أقسمتا بمن حجت قريش لبيته، وقبر صرفت، أزمة الأحياء لميته،

ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته. لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية والعارفة والوارفة. واللطيفة المطيفة، بين رجع الشباب بقطر ماء، ويرف، نماء، ويغازل عيون الكواكب، فضلا عن الكواعب، إشارة وإيماء، بحيث لا الوحظ يلم بسياج لمته، أو يقدح ذباله في ظلمته، أو يقوم حواريه في ملته، من الأحابش وأمته، وزمانه روح وراح، ومغذي في النعيم ومراح، وقصف صراح، ورقى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها إلا انشراح، ومسرات تردفها أفراح، وبين قدومك خليع الرسن، ممتعا - والحمد لله - باليقظة والوسن، محكماً في نسك الجنيد أو فتك الحسن، ممتعا بظرف المعارف، مالئا أكف الصيارف، ماحيا بأنوار البراهين شبه الزخارف لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعي دمنه. فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة أرابين وغبطني بمائي وترابي، ومألف ترابي، وقد أغصني بلذيذ شرابي، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي. وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية، منتهى الطية، منتهى الطية، وملتقى للسعود غير البطية، وتهني الآمال الوثيرة الوطية. فما شئت من نفوس عاطشة إلى ربك، متجملة، عاقلة خطا مهريك، ومولي مكارمه نشيدة أمثالك، ومطان مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار، لا، بل للقاء من وراء البحار.

ثم أصبحت من الغد قادما على البلد، وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعين وستين وقد اهتز السلطان لقدومي، وهيأ لي المنزل من قصوره، بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي ، تحفيا وبرا، ومجازاة بالحسنى، ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرفت. وخرج

الوزير ابن الخطيب فيشعني إلى مكان نزلي؛ ثم نظمني في عليه أهل مجلسه، واختصني بالنجي في خلوته، والمواكبة في ركوبه، والمواكلة والمطايبة والفكاهة ي خلوات أنسه، وأقمت على ذلك عنده، وسفرت عنه سنة خمسة وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بطره بن الهنشة ابن أذفونش، لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة، بهدية فاخرة، ومن ثياب الحرير، والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعاينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتياظ بمكاني، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية، وأثنى على عنده طبيبه إبراهيم بن زرزر اليهودي، المقدم في الطب والنجامة، وكان لقيني بمجالس السلطان أبي عنان، وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس. ثم نزع - بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم - إلى الطاغية، فأقام عنده، ونظمه في أطبائه. فلما قدمت أنا عليه، أثنى على عنده، فطلب الطاغية مني حينئذ المقام عنده، وأن يرد على تراث سلفي بإشبيلية، وكان بيد زعماء دولته، فتفاديت من ذلك بما قبله. ولم يزل على اغتياطه إلى أن انصرفت عنه، فزودني وحملني، واختصني ببغلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان، فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة، وكتب بها منشورا كان نصه:

ثم حضرت المولد النبوي لخامسة قدومي، وكان يحتمل في الصنيع يها والدعوة، وإنشاد الشعراء، اقتداء بملوك المغرب، فأنشدته ليلتئذ:

حي المعاهد كانت قبل تحييني	**بواكف الدمع يرويها ويظميني**
إن الألى نزحت داري ودارهم	**تحملوا القلب في آثارهم دوني**

وقفت أنشد صبرا ضاع بعدهم فيهم واسأل رسما لا يناجيني

(أمثل الربع من شوق فالثمة وكيف والفكر يدنيه ويقصيني)

(وينهب الوجد مني كل لؤلؤة ما زال قلبي عليها غير مأمون)

سقت جفوني مغاني الربع بعدهم

فالدمع وقف على أطلاله الجون

منكم وهل نسمة عنكم تحييني ما لي وللطيف لا يعتاد زائره

وللنسيم عليلا يداويني يا أهل مجد وما نجد وساكنها

حسنا سوي جنة الفردوس والعين

أعندكم أنني مما مر ذكركم

إلا انثنيت كأن الراح تثنيني أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم

شوقا ولولاكم ما كان يصبيني يا نازحا والمنى تدنيه من خلدي

حتى لأحسبه قربا يناجيني

أسلى هواك فؤادي عن سواك وما

سواك يوم بحال عنك يسليني ترى الليالي أنستك أدكاري يا

من لم تكن ذكره الأيام تنسيني ومنها في وصف الإيوان

الذي بناه لجلوسه بين قصوره يا مصنعا شيدت منه السعود حمى

لا بطرق الدهر مبناه بتوهين صرح يحار لديه الطرف مفتتنا

فيما يروقك من شكل وتلوين بعد لإيوان كسري إن مشورك

السامي لأعظم من تلك الأواوين

ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا

وأشـــهـــى إلـــى الـقـلـب ... مـــن أبـــــواب جـــيـــرون

ومنها في التعريض بمنصرفي من العدوة

من مبلغ عني الصحب الألي تركوا

ودي وضاع حماهم إذا أضاعوني

أني أويت من العليا إلى حرم ... كادت مغانيه بالبشرى تحييني

وأتى ظاعنا لم ألق بعدهم ... دهرا أشاكي ولا خصما يشاكني

لا كالتي أحفرت عهدي ليالي إذ

أقلب الطرف بين الخوف والهون

***

سقيا ورعيا لأيامي التي ظفرت ... يداي منها بحظ غير مغبون

أرتاد منها مليا لا يماطلني ... وعدا وأرجو كريما لا يعنيني

وهاك منها قواف طيها حكم ... مثل الأزاهر في طي الرياحين

تلوح إن جليت درا وإن تلت ... تثني عليك بأنفاس البساتين

عانيت منها بجهدي كل شاردة ... لولا سعودك ما كادت تواتيني

يمانع الفكر عنها ما تقسمه ... من كل حزن بطي الصدر مكنون

لكن بسعدك ذلت لي شواردها ... فرضت منها بتخبير وتزيين

بقيت دهرك في أمن وفي دعة ... ودام ملكك في نصر وتمكين

وأنشدت سنة خمسة وستين في إعذار ولدع، والصنع الذي احتفل لهم فيه ودعا إليه الجفلى من نواحي الأندلس، ولم يحضرني منها إلا ما أذكره:

صحا الشوق لولا عبرة ونحيب ... وذكرى تجد الوجد حين تثوب

وقلب أبي إلا الوفاء بعهده   وإن نزحت دار وبان حبيب
ولله مني بعد حادثة النوى   فؤاد لتذكار العهود طروب
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى   وتذكى حشاه نفحة وهبوب
خليلي إلا تسعدا فدعا الأسى   فإني لما يدعو الأسى لمجيب

ألما على الأطلال يقض حقوقها
من الدمع فياض الشؤون سكوب
ألما على الأطلال يقص حقوقها
من الدمع فياض الشؤون سكوب
ولا تعذلاني في البكاء فإنها
حشاشة نفسي في الدموع تذوب

ومنها في تقدم ولده للأعذار من غير نكول:

فيمم منه الحفل لا متقاعس   لخطب ولا نكاس اللقاء هبوب
وراح كما راح الحسام من الوغي   تروق حلاة الفراند خصيب

شواهد أهدتهن منك شمائل
وخلق بصفو المجد منك مشوب

ومنها في الثناء على ولديه:

هما النيران الطالعان على الهدى
بآيات فتح شأنهن عجيب
شهابان في الهيجا غمامان في الندى
تسح المعالي منهما وتصوب

يــدان لـبـسـط الـمـكـرمـات نـمـاهـمـا

إلـى الـمـجـد فـيـاض الـيـديـن وهـوب

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة:

أبـي الـطـيـف أن يـعـتـاد لـتـوهـمـا

فمن لـي بـأن ألـقـي الـخـيـال المسلما

وقـد كـنـت أسـتـهـديـه لـو كـان نـافـعـي

وأسـتـمـطـر الأجـفـان لـو تـنـقـع الظمأ

ولـكـن خـيـال كـاذب وطـمـاعـة

تـعـلـل قـلـبـا بـالـمـانـي مـتـيـمـا

أيـا صـاحـبـي نـجـواي والـحـب لـوعـة

تـبـيـح بـشـكـواهـا الـضـمـيـر الـمـكـتـمـا

خـذا لـفـؤادي العهد من نفس الصبا

وظبى النقا والبان من أجرع الحمى

إلا صنع الشوق الذي هو صانع — فـحـي مـقـيـم أقـصـر أوسـمـا

وإنـي لـيـدعـونـي الـسـلـو تـعـللا — وتنهاني الأشجان أن اتقدما

لـمـن دمـن أقـفـرن إلا هـواتـفـا — تـردد فـي أطـلالـهـن الـتـرنـمـا

عرفت بما سيما الهوى وتنكرت — فعجت على آياتها متوسما

وذو الشوق يغاد الربوع دوارسا — ويـعـرف آثـار الـديـار تـوهـمـا

تـأويـنـي والـلـيـل بـيـنـي وبـيـنـه — وميض بأطراف الثنايا تضرما

أجـد لـي الـعـهـد الـقـديـم كأنه — أشـار بـتـذكـار الـعـهـود فـأفـهـمـا

عجبت لمرتاع الجوانح خافق　　　بكيت له خل الدجي وتبسما

وبــــت أرويــــه كــــؤوس مــدامــعــي

وبات يعاطيني الحديث عن الحمى

وصافحته عن رسم دار بذي الغضى

لبست بها ثوب الشبيبة مغلما

لعهدي بها تدني الظباء أوانا　　　وتطلع في آفاقها العيد أنجما

أحن إليها حيث ساربي الهوى　　　وأنجد رحلي في البلاد وأنهما

ولما استقر، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغتباط والاستئثار وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى تلمسان. وأمر قائد الأسطول بالمرية، فسار لإجازتهم في أسطوله، واحتلوا بالمرية. واستأذنت السلطان في تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة، بعد أن هيأت لهم المنزل والبستان، ودمنه الفلح، وسائر ضرورات المعاش.

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة، وقد كتبت إليه استأذنه في القدوم، وما أعتمده في أحواله.

سيدي، قدمت بالطير الميامين، على البلد الأمين، واستضفت الرفاء إلى البنين ومتعت بطول السنين. وصلتني البراءة المعربة عن كثب اللقاء، ودنو المزار، وذهاب البعد، وقرب الدار، واستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدوم، والحق أن يتقدم سيدي إلى الباب الكريم، في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يفض حجيجه، ولا صوح بهيجه، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم،

واختاره اليمن قبل اختيارهم، والسلام.

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر. وشممت منه رائحة الانقباض، مع استبداده بالدولة، وتحكمه في سائر أحوالها، وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية، بأنه استولى عليها في رمضان خمسة وستين. واستدعاني إليه. فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه. وعمت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته، فارتمض لذلك، لم يسعه إلا الإسعاف، فودع وزود، وكتب لي مرسوم بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصه:

هذا ظهير كريم، تضمن تشييعا وترفيعا، وإكراما وإعظاما، وكان لعمل الصنيعة ختاما، وعلى الذي أحسن تماما، وأشد للمعتمد به بالاغتباط الذي راق قساما وتوفر أقساما، وأعلن له بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعاً أو آثر على الظعن المزمع مقاما.

أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه، الأمير عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيد الله أمره، وأعز نصره، وأعلى ذكره، للولي الجليس، الحظي المكين، المقرب الأود الأحب، الفقيه الجليل، الصدر الأوحد، الرئيس العلم، الفاضل الكامل، المرفع الأسمى، الأظهر الأرضي، الأخلص الأصفى، أبي زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الجليل الحسيب الأصيل، الفقيه المرفع المرفع المعظم، الصدر الأوحد الأسمى، الأفضل الأكمل، الموقر المبرور، أبي يحيي أبي بكر، ابن الشيخ الجليل الكبير، الرفيع الماجد، القائد الحظي، المعظم الموقر، المبرور المرحوم، أبي عبد

الله بن خلدون. وصل الله له أسباب السعادة، وبلغه من فضله أقصى الإرادة، أعلن بما عنده، أيده الله، من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفع، وإن كان غنيا في الإعلان. وأعرب عن معرفته بمقداره، في الحسباء العلماء الرؤساء الأعيان، وأشاد باتصال رضاء عن مقاصده البرة وشيمه الحسان، من لدن وفد بابه، وفادة العز الراسخ البنيان، وأقام المقام الذي عين له رفعه المكان، وإجلال الشان، إلى أن عزم على قصد وطنه، أبلغه الله ذلك في ظل اليمن والأمان، وكفالة الرحمن بن الاغتباط المربي على الخبر بالعيان، والتمسك بجواره بجهد الإمكان، ثم قبول عذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان. وبعد أن لم يذخر عنه كرامة رفيعة، ولم يحجب عنه وجه صنيعة، فولاه القيادة والسفارة، وأحله جليسا معتمدا بالاستشارة، وألبسه من الحظوة والتقريب أبهى الشارة، وجعل محله من حضرته مقصودا بالمثل معنيا بالإشارة، ثم أصحبه تشييعا بشهد بالضنانة بفراقه، ويجمع له بر الوجهة من جميع آفاقه، ويجعله بيده رتيمة خنصر، ووثيقة سامع أو مبصر، فمهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره، وتمليه من نهمة سفرة، أو نزع به حسن العهد وحنين الود، فصدر العناية به مشروح، وباب الرضا والقبول مفتوح، وما عهده من الحظوة والبر ممنوح. فما كان القصد في مثله من أمجاد الأولياء ليتحول، ولا الاعتقاد الكريم ليتبدل، ولا الخير من الأحوال لينسخ الأول. على هذا فليطو ضميره، وليرد متى شاء نميره، ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدام، برا وبحرا، على اختلاف الخطط والرتب، وتباين الأحوال والنسب، أن يعرفوا حق هذا الاعتقاد، في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول، وإعانة وقبول، واعتناء

موصول، إلى أن يكمل الغرض، ويؤدي من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض، بحول الله وقوته.

وكتب في التاسع عشر من جمادي الأول عام ستة وستين وسبع مائة.

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان، ونصها: «صح هذا».

(9)
الرحلة من الأندلس إلى بجلية، وولاية الحجابة بها على الاستبداد

يواصل ابن خلدون مذكراته فيقول:

كانت بجاية ثغر الإفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين. ولما صار أمرهم للسلطان أبي بكر بن يحيي منهم، واستقل بملك إفريقية، ولى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكرياء، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير أبا عبد الله. وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، ينازعونه في أعماله، ويجمرون العساكر على بجاية، ويجلبون على قسنطينة، إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بذمة من السلطان أبي الحسن، ملك المغرب الأقصى من بني مرين، وله الشفوف على سائر ملوكهم، وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان، فأخذ بمخنفها سنتين أو أزيد، وملكها عنوة، وقتل سلطانها أبا تلشفين، وذلك سنة سبع وثلاثين، وخف ما كان على الموحدين من إصر بني عبد الواد، واستقامت دولتهم. ثم هلك أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحيي بقسنطينة سنة أربعين، وخلف سبعة من الولد، كبيرهم أبو زيد عبد الرحمن، ثم أبو العباس أحمد، فولى الأمير أبا زيد مكان أبيه، في كفالة نبيل مولاهم. ثم توفى الأمير أبو زكرياء ببجاية سنة ستة وأربعين، وخلف ثلاثة من الولد، كبيرهم أبو عبد الله محمد، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا

حفص عليها، فمال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبد الله بن أبي زكرياء، وانحرفوا عن الأمير عمر وأخرجوه وبادر السلطان فرقه هذا الخرق، بولاية أبي عبد الله عليهم كما طلبوه. ثم توفي السلطان أبو بكر منتصف سبع وأربعين، وزحف أبو الحسن إلى إفريقية فملكها، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب. وأقطع لهم هنالك، إلى أن كانت حادثة القروان، وخلع السلطان أبو عنان أباه. وارتحل من تلمسان، إلى فاس، فنقل معه هؤلاء الأمراء، أهل بجاية وقسنطينة، وخلطهم بنفسه، وبالغ في تكرمنهم. ثم صرفهم إلى ثغورهم، الأمير أبا عبد الله أولا، وإخوته من تلمسان، وأبا زيد وإخوته من فاس، ليستبدوا بثغورهم، ويخذلوا الناس عن السلطان أبي الحسن، فوصلوا إلى بلادهم، وكلوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين، فانتزعوها منه. واستقر أبو عبد الله ببجاية، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين، فهزم ملوكها من بني عبد الواد، وأبادهم، ونزل المدية، وأطل على بجاية. وبادر الأمير أبو عبد الله للقائه، وشكا إليه ما يلقاه من زبون الجند والعرب، وقلة الجباية. وخرج له عن ثغر بجاية فملكها، وأنزل عماله بها. ونقل الأمير أبا عبد الله معه إلى المغرب، فلم يزل عنده في جفاية وكرامة. ولما قدمت على السلطان أبي عنان آخر خمس وخمسين واستخلصني، نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد الله واستدعاني للصحابة فأسرعت، وكان اللطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك. ثم كثر المنافسون، ورفعوا إلى السلطان، وقد طرقه مرض أرجف له الناس، فرفعوا له أن الأمير أبا عبد الله اعتزم على الفرار

إلى بجاية، وأني عاقدته على ذلك، على أن يوليتي حجايته، فانبعث لها السلطان، وسطا بنا. واعتقلني نحوا من سنتين إلى أن هلك. وجاء السلطان أبو سالم، واستولى على المغرب، ووليت كتابة سره. ثم نهض إلى تلمسان، وملكها من يد بني عبد الواد، وأخرج منها أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي بن يغمراسن، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس، وولى علي تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أي تاشفين، وأمده بالأموال والعساكر من أهل وطنه، ليدافع أبا حمو عن تلمسان، ويكون خالصة له. وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية معه كما ذكرناه، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة، بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواما تباعا. ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بونة، وترك أخاه أبا العباس بها، فخلعه، واستبد بالأمر دونه. وخرج إلى العساكر المجمرة عليها من بني مرين، فهزمهم، وأثخن فيهم. ونهض السلطان إليه من فاس، سنة ثمان وخمسين، فتبرأ منه أهل البلد وأسلموه، فبعثه إلى سبتة في البحر، واعتقله بها، حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين، أطلقه من الاعتقال، وصحبه إلى دار ملكه، ووعده برد بلده عليه.

فلما ولى أبا زيان علي تلمسان، أشار عليه خاصته ونصحاؤه، بأن يبعث هؤلاء الموحدين إلى ثغورهم: فبعث أبا عبد الله إلى بجاية، وقد كان ملكها عمه أبو إسحاق صاحب تونس، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين، وبعث أبا العباس إلى قسنطينة، وبها زعيم من زعماء بني مرين. وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته. وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجاية، فطال إجلابه عليها، ومعاودته حصارها.

ولج أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحاق. وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم. وتوليت كبر ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه، حتى تم القصد من ذلك. وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه، ومعنى الحجابة. في دولنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد. وكان لي أخ اسمه يحيي أصغر مني، فبعثته مع الأمير أبي عبد الله حافظ للرسم، ورجعت مع السلطان إلى فاس. ثم كان ما قدمته من انصرافي إلى الأندلس والمقام بها، إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب، وأظلم الجو بيني وبينه.

وبينا نحن في ذلك، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية من يد عمه، في رمضان (سنة) خمسة وستين، وكتب الأمير أبو عبد الله يستقدمني، فاعتزمت على ذلك، ونكر السلطان أبو عبد الله ابن الأحمر ذلك مني، لا يظنه لسوى ذلك، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب، فأمضيت العزم، ووقع منه الإسعاف، والبر والألطاف. وركبت البخر ن ساحل المرية، منتصف ست وستين. ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي. وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوما مشهودا.

ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل، وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة

بجامع القصبة، وأنا مع ذلك، عاكف - بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة - إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك.

ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثتها المشاحة في حدود العمال من الرعايا والعمال، وشاب نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الذواودة من رياح، تنفيقا لسوق الزبون يمترون به أموالهم. وكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض، فالتقوا سنة ست وستين بفرجيوة، وانقسم العرب عليهما. وكان يعقوب بن علي مع السلطان أبي العباس، فانهزم السلطان أبو عبد الله، ورجع إلى بجاية مفلولا، بعد أن كنت جمعت له أموالا كثيرة أنفق جميعها في العرب. ولما رجع أعوزته النفقة، فخرجت بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منذ سنين، فدخلت بلادهم واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة، ثم بعث صاحب تلمسان إلى السلطان (أبي عبد الله) يطلب منه الصهر، فأسعفه بذلك ليصل يده به على ابن عمه، وزوجه ابنته، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين، وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبد الله، بما كان يرهف الحد لهم، ويشد وطأته عليهم؛ فأجابوه إلى الانحراف عنه، وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مدافعته، ونزل جبل ليزو معتصما به، فبيته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رياح بمكانه ذلك، بإغراء ابن صخر وقبائل سذويكش. وكبسه في مخيمه وركض هاربا، فلحقه وقتله، وسار إلى البلد بمواعده أهلها. وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقضية السلطان وقصوره، وطلب مني

جماعة من أهل البلد القيام بالمر، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس، فأكرمني وحباني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها. وكثرت السعاية عنده في، والتحذير من مكاني. وشعرت بذلك، فطلبت الأذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي، وخرجت إلى العرب، ونزلت إلى يعقوب بن علي. ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي، واعتقله ببونة، وكبس بيوتنا يظن بها ذخيرة وأموالا، فأخفق ظنه. ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي، وقصدت بكسرة، لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه، فأكرم، وبر، وساهم في الحادث بماله وجاهه.

(10)
مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان

يقول ابن خلدون:

كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصهر في ابنته، وكانت عنده بتملسان. فلما بلغه مقتل أبيها، واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمه صاحب قسنطينة علي بجاية، أظهر الامتعاض لذلك. وكان أهل بجاية قد توجسوا الخيفة من سلطانهم، بإرهاف حده، وشده سطوته، فانحرفوا عنه باطنا، وكاتبوا ابن عمه بقسنطينة كما ذكرناه.

ودسوا للسلطان أبي حمو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما. فلما استولى السلطان أبو العباس، وقتل ابن عمه، رأوا أن جرحهم قد اندمل، وحاجتهم قد قضيت، فاعصو صبوا عليه، وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاض للواقعة يبر منه حوا في ارتغاء، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية، بما كان يرى نفسه كفؤها بعده وعديده، وما سلف من قومه في حصارها، فسار من تلمسان بحر الشوك والمدر، حتى خيم بالرشة من ساحتها، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وظعائنهم، من لدن تلمسان، إلى بلاد حصين، من بني عامر، وبني يعقوب، وسويد، والديالم، والعطاف، وحصين.

وانحجر أبو البعاس بالبلد في شرذمة من الجند، أعجله السلطان

أبو حمو عن استيعاب الحشد، ودافع أهل البلد أحس الدفاع، وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو من قسنطينة، كان معتقلا بها، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيرا أن يخرج معه في العساكر، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قباله معسكر أبي حمو، وكانت رحلات زغبة قد وجموا من السلطان، وأبلغهم النذير إنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها فراسلوا أبا زيان، وركبوا إليه، واعتقدوا معه. وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن، ودفعوا شرذمة كانت محمرة إزاءهم، فاقتلعوا خباءهم، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيطة الرشة. وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا، ؟؟؟ الناس في الانجفال حتى أفردوا السلطان في مخيمه، فحمل رواحله وسار، وكضت الطرق بزحامهم، وتراكموا بعض على بعض، فهلك منهم عوالم، وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية، وقد غشيهم الليل، فتركوا أزودتهم ورحالهم. وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد عصب الريق، وأصبحوا على منجاة. وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان، وكان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجي من بجاية، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي، فكتب إلى يستقدمني قبل هذه الواقعة. وكانت الأمور قد اشتبهت، فتفاديت بالأعذار، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي، ثم ارتحلت إلى بسكرة، فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني. فلما وصل السلطان أبو حموا إلى تلمسان، وقد جزع للواقعة، أخذ في استئلاف قبائل رياح، ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم، وملك زمامهم، ورأى أن يعول على في ذلك، واستدعاني لحجابته وعلامته،

وكتب بخطه مدرجة في الكتاب نصها.

الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله على أنك تصل إلى مقامنا الكريم، لما اختصصناكم به من الرتبة المنيعة، والمنزلة الرفيعة، وهو قلم خلافتنا، والانتظام في سلك أوليائنا، أعملناكم بذلك. وكتب بخط يده عبد الله، المتوكل على الله، موسى بن يوسف لطف الله به وخاز له.

وبعده بخط الكاتب ما نصه: بتاريخ السابع عشر من رجب الفرد الذي من عام تسعة وستين وسبعمائة عرفنا الله خيره.

ونص الكتاب الذي هذه مدرجته، وهو بخط الكاتب «أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد، ووالي رعايتكم. إنا وقد ثبت عندنا، وصح لدينا ما انطويتك عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جنابنا، والتشيع قديما وحديثا لنا، مع ما تعلمه من محاسن اشتملت عليه أوصافكم، ومعارف فقتم فيها نظراءكم، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية.

وكانت خطة الحجابة بابنا العلى - أسماء الله - أكبر درجات أمثالكم، وأرفع الخطط لنظرائكم، قربا منا، واختصاصا بمقامنا، واطلاعا على خفايا أسرارنا. آثرتاكم بها إيثارا، وقدمناكم لها اصطفاء واختيارا، فاعلموا على الوصول إلى بابنا العلى، أسماء الله، لما لكم فيه من التنويه، والقدر النبيه، حاجبا لعلى بابنا، ومستودعا لأسرارنا، وصاحب الكريمة علامتنا، إلى ما يشكل ذلك من الإنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء التكريم. لا يشارككم مشارك في ذلك ولا يزاحمكم أحد، وإن

وجد من أمثالك فأعلموه، وعولوا عليه، والله تعالى يتولاكم، ويصل سراءكم، ويوالي احتفاءكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وتأدت إلى هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه، جاء إلى أشياخ الذواودة في هذا الغرض، فقمت له في ذلك أحسن مقام، وشايعته أحسن مشايعة، وحملتهم على إجابة داعي السلطان، والبدار إلى خدمته. وانحرف كبراؤهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته، والاعتمال في مذاهبه، واستقاكم عرضه من ذلك؛ وكان أخي يحيي قد خلص من اعتقاله ببونة، وقدم على ببسكرة، فبعثته إلى السلطان أبي حمو كالنائب عني في الوظيفة، متفاديا عن تجشم أهوالها، بما كنت نزعت عن غواية الرتب. وطال على إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس، فوصل إليه الخ، فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه.

ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبد الله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إليَّ، وتأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر، فبعث إليَّ به من هنالك ونصه:

بنفسي وما نفسي على بهينة   فينزلني عنها المكاس بأثمان

حبيت نأي عني وصم لأنني   وراش سهام البين عمداً فأصماني

وقِد كان هم الشيب - لا كان - كافيا

قد أدني لما ترحل همان

شرعت له من دمع عيني مواردا   فكدر شربي بالفراق وأظماني

وأرعيته من حسن عهدي جميمه   فأجدب آمالي وأوحش أزماني

حلفت على ما عنده لي من رضى
قياسا بما عندي فأحنث إيماني

وإني على ما نالني منه من قلى
لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن

سألت جنوني فيه تقريب عرشه
فقست بجن الشوق جن سليمان

إذا ما دعا داع من القوم باسمه
وثبت وما استثبت شيمه هيمان

وتالله ما أصغيت فيه لعاذل
تحاميته حتى ارعوى وتحاماني

ولا استشعرت نفسي برحمة عابد
تظلل يوما مثله عبد رحمان

ولا شعرت من قبله بتشوق
تخلل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فاسأل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوي والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الرج، وإني بالصبر على إبر الدبر، لا. بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم والشهر، تحت حكم القهر، ومن للعين إن تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد بضعة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن نزحت، وإذا كان الفراق، هو الحمام الأول، فعلام العول، أعين مراوضة الفراق، عمل الراق، وكادت لوعة الاشتياق، أن تفضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم
أوسع أمر الصبر عصيانا

أقرع سني ندما تارة
واستميح الدمع أحيانا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية، وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية، اسأل نون النؤي عن أهليه، وميم الموقد المهجور عن

مصطلحيه، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين، وأحار وبين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، كلفت لعمر الله يسال عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي المتجمعة والمتفرقة. ظعن عن ملاك، لا متبرما منا بشر حلال، وكدر الوصل بعد صفائه، وضرج النصل، بعد عهد وفائه.

أقل اشتياقا أيها القلب إنما رأيتم تصفي الود من ليس جازيا

فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ربع الفراق أسى له، وأشكو إليه حال قلب صدعه، وأودعه من الوجد ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنبثق رياه أنف ارتياح قد جدعه، وأستعديه على ظلم ابتدعه.

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من خب قاتله قبلي

فولا عسى الرجاء ولعله، لا. بل شفاعة المنحل الذي حله، لنشرت ألوية العتب، وبثثت كتائبها، كمناء في شعاب الكتب، تهز من الألفات رماحا خزر الأسنة وتوتر من النونات أمثال القسى المرنة وتقود من مجموع الطرس والنفس بلقا تردي في الأعنة، ولكنه أوى إلى الحرم الآمين، ونفيا ظلال الجوار المؤمن من معره الغوار عن الشمال واليمين، حرم الجلال المزنية، والظلال اليزنية، والهمم السنية، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية، حيث الرفد الممنوح، والطير الميامين يزجر لها السنوح والمثوى الذي إليه، مهما تقارع الكرام على الضيفان، حول جوابي الجفان، الميل والجنوح:

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

ومن حل بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه، وتغمد بالعفو ذنبه ولله در

القائل:

فوحقه لقد انتدبت لوصفه ... بالبخل لولا أن حمصا داره

بلد متى أذكره تهتج لوعتي ... وإذا قدحت الزند طار شراره

اللهم غفرا، وأين قرارة التخيل، من مثوى الأقلف البخيل، ومكذبة المخيل، وأين ثانية هجر، من متبوأ من ألحد وفجر:

من أنكر غيثا منشؤه ... في الأرض ينوء بمخلفها

فبنان بني مزني مزن ... تنهل بلطف مصرفها

كزن مد حل ببسكرة ... يوما نطقت بمصحفها

شكرت حتى بعبارتها ... وبمعناها وبأحرفها

ضحكت بأبي العباس من الـ... ....أيام ثنايا زخرفها

وتنكرت الدنيا حتى ... عرفت منه بمعرفتها

بل نقول: يا محل الولد، «لا أقسم بهذا البلد، وأنت جل بهذا البلد»،لقد حل بينك عرى الجلد، وخلد الشوق بعدك يا بن خلدون في الصميم من الخلد؛ فحيا الله زمانا شفيت في قربك زمانته، وزاجتلت في صدف مجدك جمانته، وقضيت في مرعى خلتك لبانته؛ وأهلا بروض أظلت أشتات معارفك بانته، فحمائمه بعدك تندب، فيساعدها الجندب، ونواسمه ترق فتتعاشى، وعشياته تتخافت وتتلاشى، وأدواحه في ارتباك، وحمائمه في مأتم ذي اشتباك؛ كأن لم تكن قمر هالات قبابه، ولم يكن أنسك شارع بابه، إلى صفوة الظرف ولبابه، ولم يسبح إنسان عينك في ماء شبابه، فلهفي عليك من درة اختلستها يد النوى، ومطل بردها

الدهر ولوى، ونعق الغراب ببيتها في ربوع الهوى، ونطق بالزجر فما نطق عن الهوى، وبأي شيء يعتاض منك أيتها الرياض، بعد أن طما نهرك الفياض، وقهقهت الحياض، ولا كان الشاني المشنوء والجرب المهنوء، من قطع ليل أغار على الصبح فاحتمل، وشارك في الذم الناقة والجمل، واستأثر جنحه ببدر الناديلما كمل، نشر الشراع فراع، وواصل الإسراع، فكأنما هو تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة، واختطف لهم من الشط نزهة العين وعين النزهة؛ ولجج بها والعيون تنظر والغمر عن الأتباع يحظر، فلم يقدر على الأسف، والتماح الأثر المنتسف، (والرجوع يملء العيبة من الخيبة، ووقر الجسرة، من الحسرة)؛ إنما نشكو إلى الله البث والحزن، ونستمطر من عبراتنا المزن، وبسيف الرجاء نصول، وإذا أشرعت لليأس أسنة ونصول:

ما أقدر الله أن يدني على شحط   من داره الحزن ممن داره صول

فإن كان كلم الفراق رغيبا، لما نويت مغيبا، وجللت الوقت الهنى تشغيبا، فلعل الملتقى يكون قريبا، وحديث يروي صحيحا غريبا. إيه سيدي! كيف حال تلك الشمائل، المزهرة الخمائل، والشيم، الهامية الديم؟ هل يمر ببالها من راعت بالبعد باله، وأخمدت بعاصف البين ذباله، أو ترثي لشؤون شأنها سكب لا يفتر، وشوق يبت حبال الصبر ويبتر، وضنى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء،وتستر، والمر أعظم والله يستر، وما الذي يضيرك، صين من لفح السموم نضيرك، بعد أن أضرمت وأشعلت، وأوقدت وجعلت، وفعلت فعلتك التي فعلت أن تترفق بذماء، أو ترد بنغبة ماء، أرماق ظماء، وتتعاهد المعاهد بتحية يشم عليها شذا أنفاسك، أو تنظر إلينا - على البعد - بمقلة حوراء من بياض قرطاسك

وسواد أنفاسك، فربما قنعت الأنفس المحبة بخال زور، وتعللت بنوال منزور، ورضيت لما لم تصد العنقاء، بزرزور:

يا من ترحل والرياح لأجله يشتاق إن هبت شذا رياها

تحيا النفوس إذا بعثت تحية وإذا عزمت اقرأ «ومن أحياها»

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك، والله إلى الخير يهديك، فنحن نقول معشر مواديك: ثنى ولا تجعليها بيضة الديك»؛ وعذرا فإني لم اجترئ على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة، عن نشاط بعثت مرموسة، ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسته سوسة، وانبساط أوحى إليّ على التفرة ناموسه، وإنما هو اتفاق جرته نفثة المصدور وهناء الجرب المجدور؛ وإن تعلل به مخارق، فثم قياس فارق، أو لحن غني به بعد البعد مخارق؛ والذي هيا هذا القدر وسببه؛ وسهل المكروه إلى منه وحببه. ما اقتضاه الصنو يحيي - مد الله حياته وحرس من الحوادث ذاته - من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها، بعد أن رضى علالتها، ورشح إلى الصهر الحضرمي سلالتها؛ فلم يسع إلا إسعافه؛ لما أعافه، فأمليت مجيبا، ما لا يعد يوم الرهان نجيبا، وأسمعته وجيبا، لما ساجلت بهذه الترهات سحر عجيبا، حتى إذا ألف القلم العريان سبحه،وجميع برذون الغزارة فلم أطق كبحه، لم أفق من غمرة غلزوه وموقف متلوه، إلا وقد تحيز إلى فئتك، معتز بل معترا، واستقبلها ضاحكا مفترا، وهش لها برا وإن كان من الخجل مصفرا، وليس بأول من هجر، في التماس والوصل ممن هجر أو بعث التمر إلى هجر، وأي نسب بيني اليوم وبين زخلاف الكلام، وإجالة جياد الأقلام، في محاورة الأعلام؛ بعد أن حال الجريض، دون القريض،

وشغل المريض عن التعريض؛ وغلب حتى الكسل، وصلت الشعرات البيض كأنها الأسلن تروع برقط الحيات، سرب الحياة، وتطرق بذوات الغرر والشيات، عند البيات؛ والشيب الموت العاجل، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل، والمعتبر الآجل، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده، حكم في الظاهر بإبعاده وأسره في ملكه عاده، فأعض أبقاك الله واسمح، لمن قصر عن المطمح، وبالعين الكليلة فالمح، واغتنم لباس ثوب الثواب، واشف بعض الجوى بالجواب.

تولاك الله فيما استضفت وملكت، ولا بعدت ولا هلكت، وكان لك آية سلكت ووسمك من السعادة بأوضح السمات، وأتاح لقاءك من قبل الممات، والسلام الكرى، ورحمة الله وبركاته، من محبة المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب، في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني، من عام سبعين وسبعمائة.

وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إلي، بعث به إلى تلمسان، فتأخر وصوله، حتى بعث به الأخ يحيى عند وفادته على السلطات، ونص الكتاب:

يا سيدي إجلالا واعتدادا، وأخي ودا واعتقادا، ومحل ولدي شفقة سكنت مني فؤادا. طال علي انقطاع أنبائك، واختفاء أخبارك، فرحوت إن تبلغ النية هذا المكتوب إليك، وتخترق به الموانع دونك، وإن كنت في مباثتك كالعاطش الذي لا يروى والأكل الذي لا يشبع، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية، والعوائد المألوفة؛ فأنا الآن- بعد إنهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع، وتقرير الشوق اللزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إتاحة القرب قبل الفوت من الله ميسر العسير، ومقرب

البعيد،- أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس مجالا في مجال الخلوص لك، وأشدهم حرصا على اتصال سعادتك؛ وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنوع الحال لديك، واستقرارك ببسكرة محل الغبطة بك، بالملجأ إلى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب، الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد؛ حرسها الله ملجأ للفضلاء، ومخيما لرجال العلياء، ومهبأ لطيب الثناء، بحوله وقوته؛ وما كل وقت تتاح فيه السلامة؛ فاحمدوا الله على الخلاص، وقاربوا في معاملة الآمال، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، وابخلوا بها عن المتآلف، فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع الحافة جمة، والحاصل حسرة، وبأقل السعي تحصل حالة العافية، والعاقل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت، إنما ينال منه الضروري، ومثلك لا يعجزه- مع التماس العافية- أضعاف ما يزجي به العمر من المأكل والمشرب، وحسبنا الله.

وإن تشوفت لحال المحب تلك السيادة الفذة، والبنوة البرة، فالحال الحال، من جعل الزمام بيد القدر، والسير في مهيع الغفلة، والسبع في تيار الشواغل، ومن وراء الأمور غيب محجوب، وأمل مكتوب، نؤمل فيه عادة الستر من الله، إلا أن الضجر الذي تعلمونه، خفضه اليأس لما عجزت الحلة، وأعوز المناص، وسدت المذاهب، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال.

وفيما يرجع إلى السلطات- تولاه الله-، على أضعاف ما باشر سيدي من الإغياء في البر ووصل سبب الالتحام، والاشتمال، مع الاستقلال، وما ينتجه متعود الظهور، والحمد لله.

وفيما يرجع إلى الأحباب والأولاد، فعلى ما علمت، إلا أن الشوق

مخامر القلوب، وتصور اللقاء مما يزهد في الوطن وحاضر النعم. سنى الله ذلك على أفضل حال، ويسره قبل الارتحال، عن دار المحال.

وفيما يرجع إلى الوطن، فأحلام النائم خصبا، وهدنة وظهورا على العدو، وحسبك بافتتاح حصن آشر، وبرغة القاطعة بين بلاد الإسلام، ووبذة، والغارين وبيغه وحصن السهلة، في عام؛ ثم دخول بلد إطريرة: بنت أشبيلية عنوة، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبى، ثم فتح دار الملك، ولدة قرطبة: مدينة جيان عنوة في اليوم الأغر المحجل، وقتل المقاتلة، وسبى الذرية، وتعفيه الآثار حتى لا يلم بها العمران، ثم افتتاح مدينة أبدة التي تلف جيان في ملاءتها: دار التجار، والرفاهية، والبنى الحافلة، والنعم الثرة، نسأل الله- جل وعلا- أن يصل عوائد نصره، ولا يقطع عنا سبب رحمته، وأن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك والإعانة عليه.

ولم تزيد من الحوادث إلا ما علمتم، من أخذ الله لنسمة السوء، وخبث الأرض، المسلوب من أثر الخير: عمر بن عبد الله، وتحكم شر الميتة في نفسه، وإتيان النكال على حاشيته، والاستئصال على ذاته؛ والاضطراب مسئول على الوطن بعده، إلا أن الغرب على علاته لا يرجحه غيره.

والأندلس اليوم شيخ غزاتها الأمير عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي علي، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن: علي بن بدر الدين رحمه الله. وقد استقر بها- بعد انصراف سيدي- الأمير المذكور، والوزير مسعود بن رحو وعمر بن عثمان بن سليمان.

والسلطان ملك النصارى بطرة، وقد عاد إلى ملكه بأشبيلية، وأخوه مجلب عليه بقشتالة، وقرطبة مخالفة عليه، قائمة بطائفة من كبار

النصارى الخائفين على أنفسهم، داعين لأخيه، والمسلمون قد اغتنموا هبوب هذه الريح.

وخرق الله لهم عوائد في باب الظهور والخير، لم تكن تخطر في الآمال. وقد تلقب السلطان- أيده الله- بعقب هذه المكيفات، ب «الغني بالله» وصدرت عنه مخاطبة، بمجمل الفتوح ومفصلها، يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن.

وأما ما يرجع إلى ما يتشوف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت، فصدرت تقاييد، وتصانيف، يقال فيها- بعدما أعملته تلك السيادة من الانصراف- يا إبراهيم، ولا إبراهيم اليوم.

منها: أن كتابا رفع إلى السلطان في المحبة، من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة، أشار الأصحاب بمعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبة الله، فجاء كتابا أدعى الأصحاب غرابته. وقد وجه إلى المشرق صحبة كتاب:

«تاريخ غرناطة»، وغيره من تأليفي. وتعرف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر؛ وانثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراض، يتكلف أغراض المشارقة. من ملحة:

سلمت لمصر في الهوى من بلد ... يهديه هواؤه ولدى استنشاقه
من بينكر دعواي فقل عني له ... تكفي امرأة العزيز من عشاقه؟

والله يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه. وصدر عني جزء سميته: «الغيرة على أهل الحيرة»؛ وجزء سميته: «حمل الجمهور على السنن المشهورة». والإكباب على اختصار كتاب «(التاج» للجوهري، ورد حجمه

إلى مقدار الخمس، مع حفظ ترتيبه السهل؛ والله المعين على مشغلة تقطع بها هذه البرهة القريبة البداءة من التتمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السيادة والنبؤة، إذ لا يتعذر وجود قافل من حج، أو لاحق بتلمسان. يبعثها السيد الشريف منها؛ فالنفس شديدة التعطش، والقلوب قد بلغت- من الشوق ولاستطلاع- الحناجر.

والله أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه، ويلبسك العافية، ويخلصك وإياي من الورثة، ويحملنا أجمعين على الجادة، ويختم لنا بالسعادة. والسلام الكريم عودا على بدء، رحمة الله وبركاته، من المحب المتشوق، الذاكر الداعي، ابن الخطيب. في الثاني من جمادي الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة. انتهى.

فأجبته عن هذه المخاطبات، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته، فلم يكن شأوه يلحق. ونص الجواب:

سيدي مجددا وعلوا، وواحدي ذخرا مزجوا، ومحل والدي برا وحنوا. ما زال الشوق- منذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد- يرعي سمعي أنباءك، ويخيل إلي من أيدي الرياح تناول رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعهد غير مضاع، وود في أجناس وأنواع، فنشر بقلبي ميت السلو، وحشر أنواه المسرات، وقدح للقائك زناد الأمل، ومن الله أسأل الإمتاع بك قبل الفوت على ما يرضيك، ويسنى أماني وأمانيك. وحييته تحبة الهائم، لمواقع الغمائم، والمدلج، للصباح المتبلج وأمل على مقترح الأولياء، خصوصا فيك؛ من اطمئنان الحال، وحسن

القرار، وذهاب الهواجس، وسكون النفرة، وعموما في الدولة، من رسوخ القدم. وهبوب ريح النصر، والظهور على عدو الله، باسترجاع الحصون التي استنقذوها في اعتلال الدولة، وتخريب المعاقل التي هي قواعد النصرانية، غريبة لا تثبت إلا في الحلم، وأية من آيات الله. وإن خبيئة هذا الفتح في طي العصور السابقة، إلى هذه المدة الكريمة، لدليل على عناية الله بتلك الذات الشريفة، حين ظهرت على يدها خوارق العادة، وما تجدد آخر الأيام من معجزات الملة، ولكم فيها - والحمد لله - بحسن التدبير، ويمن النقيبة، من حميد الأثر، وخالد الذكر، طراز في حلة الخلافة النصرية، وتاج في مفرق الوزارة. كتبها الله لكم فيما يرضاه من عباده.

ووقفت عليه الأشراف من أهل ذا القطر المحروس؛ وأذعته في الملأ سرورا بعز الإسلام، وإظهار لنعمة الله، واستطرادا لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب الثناء، والتماس الدعاء، والحديث بنعمتها، والإرشاد بفضلها على الدول السالفة والخالفة وتقدمها، فانشرحت الصدور حباء وامتلأت القلوب إجلالا وتعظيما، وحسنت الآثار اعتقادا ودعاء.

وكان كتاب سدي لشرف تلك الدولة عنوانا، ولما عساه يستعجم من لغتي في مناقبها ترجمانا؛ زاده الله من فضله، وأمتع المسلمين ببقائه. وبثثته شكوى الغريب، من السوق المزعج، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفا، للتجافيي عن مهاد الأمن، والتقويض عن دار العز، بين المولى المنعم، والسيد الكريم، والبلد الطيب، والإخوان البررة، (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير). وإن تشوفت السيادة الكريمة

إلى الحال، فعلى ما علمتم، سيرا مع الأمل، ومغالبة للأيام على الحظ، وإقطاعا للغفلة جانب العمر:

هل نافعي والجدد في صبب   مري مع الآمال في صعد

رجع الله بنا إليه. ولعل في عظتكم النافعة، شفاء هذا الداء العياء إن شاء الله، على أن لطف الله مصاحب، وجواز هذه الرياسة المزنية- وحسبك بها علمية- عصمت وافية صرفت وجه القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدها منهم كما علمتم، على حين تفاقم الخطب، وتلون الدهر، والإفلات من مظان النكبة، وقد رتعت حولها، بعد ما جرته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمه، قريعه في الملك، وقسيمه في النسب، والتياث الجاه، وتغير السلطان، واعتقال الأخ المخلف، واليأس منه، ولا تكييف الله في نجائه، والعيث بعده في المنزل والولد، واغتصاب الضياع المقتناة من بقايا ما متعت به الدولة النصرية- أبقاها الله- من النعمة؛ فآوى إلى الوكر، وساهم في الحادث، وأشرك في الجاه والمال، وأعان على نوائب الدهر، وطلب الوتر، حتى رأى الدهر مكاني، وأمل الملوك استخلاصي، وتجاوزوا في إتحافي. والله المخلص من عقال الآمال، والمرشد إلى نبذ هذه الحظوظ المورطة.

وأنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة، والرسائل البليغة، في هذه الفتوحات الجليلة، ويؤدي لو وقع الإتحاف بها أو بعضها، فلقد عاودني الندم على ما فرطت.

وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم، من استقرار السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبدا بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين القائم بأمره، رحمة الله

عليه، مضايقا في جباية الوطن. وأحكامه بالعرب المستظهرين بدعوته، مصانعا لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة، لو أمكن، حسن السياسة جهد الوقت، ومن انتظام بجاية محل دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة، غلابا كما علمتم، محملا الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها، من الاستبداد والضرب على أيدي المستغلين من الأعراب، منتقض الطاعة أكثر أوقاته لذلك، إلا من شمل البلاد من تغلب العرب، ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدول في كل جهة، ولك بداية فإلى تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلعه، وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاء الجفاة على كرسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاج بينه، ما يسخن العين ويطيل البث، حتى لزعموا أن الهيعة اتصلت بالقاهرة أياما، وكثر الهزج في طرقاتها وأسواقها، لما وقع بين أسندمر المتغلب بعد يلبغا الخاسكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشية وموالي يلبغا، وتقبض على الباقين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل أسندمر في محبسه، وألقي زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان، فقام بها مستبدا، وقادها مستقلا، وبيد الله تصريف الأمور، ومظاهر الغيوب، جل وعلا.

ورغبتي من سيدي- أبقاه الله- أن لا يغب خطابه عني، متى أمكن، يصل بذلك مننه الجمة، وأن يقبل عني أقدام تلك الذات المولوية، ويعرفه بما عندي من التشيع لسلطانه، والشكر لنعمته، وأن تنهوا عني

لحاشيته وأهل اختصاصه، التحية، المختلسة من أنفاس الرياض، كبيرهم وصغيرهم.

وقد تأذى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاج نافع- سلمه الله- تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إياه بتلمسان، بحضرة السلطان أبي حمو- أيده الله- فربما يصل، وسيدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب. والله يبقيكم ذخرا للمسلمين، وملاذا للآملين بفضله. والسلام عليكم وعلى من لاذ بكم من السادة الأولاد المناجيب، والأهل والحاشية والأصحاب، ومن المحب فيكم، المعتد بكم شيعة فضلكم، ابن خلدون، ورحمة الله وبركاته.

عنوانه: سيدي وعمادي، ورب الصنائع والأيادي، والفضائل الكريمة الخواتم والمبادئ، إمام الأمة، علم الأئمة، تاج الملة، فخر العلماء الجلة، عماد الإسلام، مصطفى الملوك الكرام، نكتة الدول، كافل الإمامة، تاج الدول، أثير الله، ولي أمير المسلمين الغني بالله- أيده الله- الوزير أبو عبد الله بن الخطيب، أبقاه الله، وتولى عن المسلمين جزاءه.

وكتب إلي من غرناطة:

يا سيدي ووليي، وأخي ومحل ولدي! كان الله لكم حيث كنتم، ولا أعدكم لطفه وعنايته. لو كان مستقركم بحيث يتأتى لي إليه ترديد رسول، أو إيفاد متطلع، أو توجيه نائب، لرجعت على نفسي بالأئمة في إغفال حقكم، ولكن العذر ما علمتم، واحمدوا الله على الاستقرار في كهف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه. وشملكم فضله شكر الله حسبه الذي لم يخلف، وشهرته التي لم تكذب.

وإني اغتنمت سفر هذا الشيخ، وافد الحرمين بمجموع الفتوح، في

إيصال كتابي هذا، ويؤدي لو وفقتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رئيسها وصدرها، فيكون لكم في ذلك بعض أنش، وربما نادى ذلك في بعضه مما لم يختم عليه، وظاهر الأمور نحيل عليه في تعريفكم بها، وأما البواطن فمما لا يتأتى كثرة وضنانة، واخص، الصاد، ما أظن تشوفكم إليه حالي. فاعلوا أني قد بلغ بي الماء الزبى، واستولى على سوء المزاج المنحرف، وتوالت الأمراض، وأعوز العلاج، لبقاء السبب، والعجز عن دفعه. وهي هذه المداخلة جعل الله العاقبة فيها إلى خير؛ ولم أترك وجها من وجوه الحيلة إلا بذلته، فما أغنى ذلك عني شيئا، ولولا أنني بعدكم شغلت الفكر بهذر التأليف، مع الزهد، وبعد العهد، وعدم الإلمام بمطالعة الكتب، لم يتمش حالي من طريق فساد الفكر إلى هذا الحد، وآخر ما صدره عني كناش سميته باستنزال اللطف الموجود، في أسر الوجود. أمليته في هذه الأيام التي أقيم بها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد. بوذي لو وقفتم عليه. وعلى كتابي في المحبة، وعسى الله أن بيسر ذلك.

ومع هذا كله. والله ما قصرت في الحرص على إيصال مكتوب. إما من جهة أخيكم، أو من جهة السيد الشريف أبي عبد الله. حتى من المغرب إذا سمعت الركب يتوجه منه فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا. والأحوال كلها على ما تركتموها عليه. وأحبابكم بخير، على ما علمتم من الشوق والتشويق والارتماض لمفارقتكم. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والله يحفظكم، ويكون لكم، ويتولى أموركم، والسلام عليكم ورحمة الله. من المحب الواحش الشيح ابن الخطيب. في غرة ربيع الثاني من

عام أحد وسبعين وسبعمائة.

سيدي رضي الله عنكم. استقر بتلمسان، في سبيل تقلب ومطاوعة مزاج تعرفونه. صاحبنا المقدم في صنعة الطب أبو عبد الله الشقوري. فإن أتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم.

عنوانه: سيجدي ومحل أخي. الفقيه الجليل. الصدر الكبير المعظم، الرئيس الحاجب، العالم الفاضل، الوزير ابن خلدون. وصل الله سعده، وحرس مجده، بمنه.

وإنما طولت بذكر هذه المخاطبات، وإن كانت، فيما يظهر، خارجة عن غرض الكتاب. لأن فيها كثيرا من أخباري. وشرح حالي. فيستوفى ذلك منها من يتشوق إليه من المطالعين للكتاب.

ثم إن السلطان أبا حمو لم يزل معتملا في الإجلاب على بجاية. واستئلاف قبائل رياح لذلك، ومعولا على مشايعتي فيه، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية وقسطنطينية، وهو ابن أخيه، من العداوة التي تقتضي هل مقاسمة النسب والملك، وكان يوفد رسله عليه في كل وقت، ويمرون بي، وأنا ببسكرة، فأؤكد الوصلة، بمخاطبة كل منهما، وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمو بعد إجفاله عن بجاية، واختلال معسكره، قد سار في أثره إلى تلمسان، وأجلب على نواحيها، فلم يظفر بشيء، وعاد إلى بلاد حصين، فأقام بينهم، واشتملوا عليه، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط، واختلف أحياء زغبة على السلطان، وانتبذ الكثير عنه إلى القفر. ولم يزل

يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم، فخرج في عساكره في منتصف تسع وستين إلى حصين وأبي زيان، واعتصموا بجبل تيطري، وبعث إلي في استنفار الدواودة للأخذ بحجرتهم من جهة الصحراء، وكتب ستدعي أشياخهم: يعقوب بن علي كبير أولاد محمد. وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى. وكتب إلى ابن مزني قعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدهم، وسرنا مغربين إليه، حتى نزلنا القطفا قبلة تيطري، وقد أحاط السلطان به من جانب التل، على أنه إذا فرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس، فاستأنف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المفضية بجاية أبي العباس، فاستأنف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المفضية إلى المسيلة.

وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من رغبة، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر وأولاد عريف كبراء سويد، ونهضوا إلينا مكاننا من القطفا، فأجفلت أحياء الدواودة، وتأخرنا إلى المسيلة، ثم الزاب، وسارت زغبة إلى تيطري، واجتمعوا مع أبي زيان وحصين، وهجموا على معسكر السلطان أبي حمو ففلوه ورجع منهزما إلى زيان وحصين، وهجموا على معسكر السلطان أبي حمو ففلوه ورجع منهزما إلى تلمسان. ولم يزل من بعد ذلك على استئلاف زغبة ورياح يؤمل الظفر بوطنه وابن عمه، والكرة على بجاية عاما فعاما، وأنا على حالي في مشايعته، وإيلاف ما بينه وبين الدواودة، والسلطان أبي إسحاق صاحب تونس، وابنه خالد من بعده. ثم دخلت زغبة في طاعته، واجتمعوا على خدمته، ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية، وذلك في أخريات إحدى وسبعين،

فوقدت عليه بطائفة من الدواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سلميان لنشارف أحواله، ونطالعه بما يرسم لهم في خدمته، فلقيناه بالبطحاء، وضرب لنا موعدا بالجزائر، انصرف به العرب إلى أعليهم، وتخلفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم، وصليت به عيد الفطر على البطحاء، وخطبت به، وبينما نحن في ذلك، بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من بني مرين، قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش، وكان آخذا بمخنقه منذ حول، وساقه إلى فاس فقتله بالعذاب، وأنه عازم على النهوض إلى تلمسان، لما سلف من السلطان أبي حمو أثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في جبله، من الإجلاب على ثغور المغرب، ولحين وصول هذا الخبر؛ أضرب السلطان أبو حمو عم ذلك الشأن الذي كان فيه، وكر راجعا إلى تلمسان. وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء، مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة، فاستألف، وجمع، وشد الرحال، وقضى عيد الأضحى، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس، لتعثر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل، فأذن لي، وحملني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر. وانصرفت إلى المرسى بهنين؛ وجاءه الخبر بنزول صاحب لمغرب تازا في عساكره، فأجفل بعده من تلمسان، ذاهبا إلى الصحراء عن طريق البطحاء. وتعذر علي ركوب البحر من هنين فأقصرت، وتأذى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهنين، وأن معي وديعة احتملتها إلى صحاب بالأندلس، تخيل ذلك بعض الغواة، فكتب إلى السلطان عبد العزيز فأنقذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة، واستمر هو إلى تلمسان، ووافتني السرية بهنين

وكشفوا الخبر فلم يقفوا على صحته، وحملوني إلى السلطان، فلقيته قريبا من تلمسان، واستكشفني عن ذلك الخبر، فأعلمته بيقينه. وعنفني على مفارقة دراهم، فاعتذرت له بما كان من عمر بن عبد الله المستبد عليهم. وشهد لي كبير مجلسه، وولي أبيه وابن وليه: ونزمار بن عريف، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، واحتفت الألطاف. وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية، وأفهمني أنه يروم تملكها. فهونت عليه السبيل إلى ذلك، فسر به، وأقمت تلك الليلة في الاعتقال.

ثم أطلقني من الغد، فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين، ونزلت بجواره مؤثرا للتخلي والانقطاع للعلم لو تركت.

(10)
مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد

يقول ابن خلدون:

ولما دخل السلطان عبد العزيز تلمسان، واستولى عليها، وبلغ خبره إلى أبي حمور وهو

بالبطحاء، فأجفل من هنالك، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر، ذاهبا إلى بلاد رياح، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لإتباعه. وجمع عليه أحياء زغبة والمعقل باستئلاف وليه ونزمار وتدبيره؛ ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطد أمره، وأحملهم على مناصرته، وشفاء نفسه من عدوه، بما كان السلطان آنس مني من استتباع رياح، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة، فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين. وأنا قد أخذت في تدريس العلم. واعتزمت على الانقطاع، فآنسني، وقربني، ودعاني إلى ما ذهب إليه من ذلك فلم يسعني إلا إجابته، وخلع علي، وحملني، وكتب إلى شيوخ الدواودة بامتثال ما ألقيه من أوامره. وكتب إلى يعقوب بن علي، وابن مزني بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمو من بين أحياء بني عامر، ويحاولوه إلى حي يعقوب بن علي؛ فودعته وانصرفت في عاشوراء اثنين وسبعين، فلحقت الوزير

في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء. ولقيته، ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه. وشيعني ونزمار يومئذ، وأوصاني بأخيه محمد. وقد كان أبو حمو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف، وأنهم يرمون الرحلة إلى المغرب. وأخرجه معه من تلمسان مقيدا، واحتمله في معسكره، فأكد علي ونزمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن. وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبذرق بي ويتقدم إلى أحياء حصين بإخراج أبي زيان من بينهم، فسرنا جميعا، وانتهينا إلى أحياء حصين، وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمه ونزمار إليهم، فنبذوا إلى أبي زيان عهده، وبعثوا معه منهم من أوصله إلى بلاد رياح، ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سباع، وتوغلوا به في القفر، واستمريت أنا ذاهبا إلى بلاد رياح، فلما انتهيت إلى المسيلة ألقيت السلطان أبا حمو وأحياء رياح معسكرين قريبا منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، وقد تسائلوا إليه، وبذل فيهم العطاء ليجتمعوا إليه. فلما سمعوا بمكاني بالمسيلة، جاؤوا إلي فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز، وأوفدت أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل، فأتوه طاعتهم، ودعوه إلى دخول بلادهم في أتباع عدوه، ونهض معهم، وتقدمت أنا من المسيلة إلى بسكرة، فلقيت بها يعقوب بن علي. واتفق هو وابن مزني على طاعة السلطان، وبعث ابنه محمدا للقاء أبي حمو وأمير بني عامر خالد بن عامر، يدعوهم إلى نزول وطنه، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز، فوجده متدليا من المسيلة إلى الصحراء. ولقيه على الدوسن وبات ليلته يعرض عليهم التحول من وطن أولاد سباع إلى وطنهم بشرقي الزاب.

وأصبح يومه كذلك، فما راعهم آخر النهار إلا انتشار العجاج خارجا إليهم من أفواه الثنية، فركبوا يستشرفون، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنية، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبةٍ متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي، قد دل بهم الطريق وفد أولاد سباع الذين بعثتهم من المسيلة؛ فلما أشرفوا على المخيم، أغاروا عليه مع غروب الشمس، فأجفل بنو عامر، وانتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحائله وأمواله. ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه، حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب من بلاد الصحراء وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نهابهم. وانطلق محمد بن عريف في تلك العيهة. أطلقه الموكلون به، وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار، وتلقوه، بما يجب له. وأقام الوزير أبو بكر بن غازي على الدوسن أياما أراح فيها. وبعث إليه ابن مزني بطاعته، وأرغد له من الزاد والعلوفة، وارتحل راجعا إلى المغرب، وتخلفت بعده أياما عند أهلي ببسكرة. ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الدواودة، يقدمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي، وجماعة من أعيانهم، فسابقنا الوزير إلى تلمسان، وقدمنا على السلطان، فوسعنا من جبائه وتكرمته، ونزله ما بعد العهد بمثله. ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء، بعد أن مر بقصور بني عامر هنالك فخربها، وكان يوم قدومه على السلطان يوما مشهودا، وأذن بعدها لوفود الدواودة بالانصراف إلى بلادهم. وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير، ووليه ونزمار بن عريف، فودعوه، وبالغ في الإحسان إليهم، وانصرفوا إلى بلادهم. ثم أعمل نظره في عريف، فودعوه، وبالغ في الإحسان إليهم، وانصرفوا إلى بلادهم. ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الدواودة

لما خشي من رجوعه إلى حصين، فؤامرني في ذلك، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم، فانطلقت لذلك: وكان أحياء حصين قد توجسوا الخيفة من السلطان وتنكروا له، وانصرفوا إلى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي، وأنزلوه بينهم، اشتملوا عليه، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمو، واشتعل المغرب الأوسط نارا. ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة، وهو حمزة بن علي بن راشد؛ فز من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها فاستولى على شلف، وبلاد قومه. وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته، واعيا دؤاد، وانقطعت أنا ببسكرة، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلا بالكتاب والرسالة. وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفر الوزير ابن الخطيب من الأندلس، وقدومه على السلطان بتلمسان، توجس الخيفة من سلطانه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرة السعاية من البطانة فيه، فأعمل الرحلة إلى الثغور المغربية لمطالعتها بإذن سلطانه، فلما حاذى جبل الفتح قفل الفرضة، دخل إلى الجبل، وبيده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد هنالك بقبوله. وأجاز البحر من حينه إلى سبته، وسار إلى السلطان بتلمسان، وقدم عليهما في يوم مشهود، وتلقاه السلطان من الحظوة والتقريب وإدرار النعم بما لا يعهد مثله. وكتب إلي من تلمسان يعرفني بخبره، ويلم ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس. ولم يحضرني الآن كتابه، فكان جوابي عنه ما نصه:

الحمد لله ولا قوة إلا بالله، ولا راد لما قضاه الله.

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي، والعزوة الوثقى التي اعتقلتها يدي،

أسلم عليكم سلام القدوم، على المخدوم، والخضوع، للملك المتبوع، لا بل أحييكم تحية المشوق، للمعشوق، والمدلج، للصباح المتبلج، وأقرر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي في من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الآفاق بمناقبكم، ديدنا معروفا، وسجية راسخة، يعلم الله وكفى به شهيدا، وبهذا كما في علمكم قسما ما اختلف لي فيه أول وآخر، ولا شاهد ولا غائب. وأنتم أعلم بما في نفسي، وأكبر شهادة في خفايا ضميري. ولو كنت ذاك، فقد سلف من حقوقكم، وجميل أخذكم، واجتلاب الحظ- لو هيأه القدر- بمساعيكم، وإيثاري بالمكان من سلطانكم، ودولتكم، وما يستلين معاطف القلوب، ويستل سخائم الهواجس، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة، أ إحقاق ظن؛ ولو تعلق بقلب ساق حر ذرء وذرء، فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم، أو يرجح سوابقكم، إنما هو خبيئة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء.

ووالله وجميع ما يقسم به، ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي وصديقكم الملابس- كان- لي ولكم الحكيم الفاضل العلم أبي عبد الله الشقوري أعزه الله. نفثةمصدور، وماثة خلوص، إذ أنا أعلم الناس بمكانه منكم، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان، واضمحلال أمره، من أجماع الأمر على الرحلة إليكم، والخفوف إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم، تعرضت فيها للتهم، ووقفت بمجال الظنون، حتى تورطت في الهلكة بما راتفع عني مما لم آته، ولا طويت العقد عليه، لولا حلم مولانا الخليفة، وحسن رأيه في وثبات بصيرته، لكنت في الهالكين الأولين؛ كل ذلك شوقا إلى لقائكم، وتمثلا لأنسكم، فلا تظنوا بي الظنون،

ولا تصدقوا في التوهمات، فأنا من علمتم صادقة، وسذاجة، وخلوصا، واتفاق ظاهر وباطن، أثبت الناس عهدا، وأحفظهم غيبا، وأعرفهم بوزن الإخوان ومزايا الفضلاء؛ ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان فإني كنت أستشعر ممن استضافني ريبا بخطاب سواه، خصوصا جهتكم،لقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة واتصال اليد، مع أن الرسول تردد إلي، وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان، تولاه الله، باستكشاف ما أن بهم من حالي؛ فلم أترك شيئا مما أعلم تشوفكم إليه إلا وكشفت له قناعه، وأمنته على بلاغه؛ ولم أزل بعد انتياش مولانا الخليفة لدمائي، وجذبه بضبعي سابحا في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر.

وسقطت إلي بمحل خدمتي من هذه القاصية أخبار خلوصكم إلى المغرب، قبل وصول راجلي إلى الحضرة، غير جلية ولا ملتئمة ولم يتعين ملقى العصا ولا مستقر النوى، فأجريت الخطاب إلى استجلائها؛ وأفدت في كتابكم العزيزعلي، الجاري على سنن الفضل، ومذهب المجد، غريب ما كيفه القدر من تنويع الحال لديكم؛ وعجبت من تأتي أملكم الشارد فيه كما كنا نستبعده عند المفاوضة؛ فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين، العائدة بحسن المال في المخلف: من أهل وولد ومتاع وأثر، بعد أن رضتم جموح الأيام، وتوقلتم قلل العز، وفدتم الدنيا بحذافيرها، وأخذتم بآفاق السماء على أهلها؛ وهنيئا فقد نالت نفسكم التواقة أبعد أمانيها، ثم تاقت إلى ما عند الله؛ وأشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا ونزع اليد من حطامها عند الأصحاب والإقبال،

ونهى الآمال، إلا جذبا وعناية من الله، وحبا؛ وإذا أراد الله أمرا يسر أسبابه.

وأتصل بي ما كان من تحفي المثابة المولوية بكم، واهتزاز الدولة لقدومكم؛ ومثل تلك الخلافة، أيدها الله، من يثابر على المفاخر، ويستأثر بالأخاير. وليت ذلك عند إقابلكم على الحظ، وأنسكم باجتلاب الآمال، حتى يحسن المتاع بكم، ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم، فالظن إن هذا الباعث الذي هزم الآمال، ونبذ الحظوظ، وهون المفارق العزيز، يسومكم الفرار إلى الله، حتى يأخذ بيدكم إلى فضاء المجاهد، ويستوي بكم على جودي الرياضة. والله يهدي للتي هي أقوم. وكأني بالأقدام نقلت، والبصائر بإلهام الحق صقلت، والمقامات خلفت بعد أن استقبلت، والعرفان شيمت أنواره وبوارقه، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه. وأما حالي، والظن بكم الاهتمام بها، والبحث عنها، فغير خفية بالباب المولوي- أعلاه الله- ومظهرها في طاعته، ومصدرها عن أمره، وتصاريفها في خدمته، والزعم أني قمت المقام المحمود في التشيع، والانحياش، واستمالة الكافة، إلى المناصحة، ومخالطة القلوب للولاية، وما يتشوفه مجدكم ويتطلع إليه فضلكم واهتمامكم، من خاصيتها في النفس والولد، فجهينة خبره مؤدي كتابي إليكم، ناشئ تأديبي وثمرة تربيتي، فسهلوا له الإذن، وألينوا له جانب النجوى، حتى يؤدي ما عندي وما عندكم، وخذوه بأعقاب الأحاديث أن يقف عند مبادئها، وائتمنوه على ما تحدثون، فليس بظنين على السر.

وتشوفي لما يرجح به إليكم سيدي وصديقي وصيدقكم المغرب في المجد والفضل، والمساهم في الشدائد، كبير المغرب، وظهير الدولة،

أبو يحيى بن أبي مدين- كان الله له- في شأن الولد والمخلف، تشوف الصديق لكم، الضنين على الأيام بقلامة الظفر من ذات يدكم، فأطلعوني طلع ذلك ولا يهمكم؛ فالفراق الواقع حسن، والسلطان كبير، والأثر جميل، والعدو الساعي قليل وحقير، والنية صالحة، والعمل خالص، ومن كان لله كان الله له.

واستطلاع الرياسة المزنية الكافلة- كافأ الله يدها البيضاء- عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم، ويشكر الزمان على ولاده لمثلكم.

وقد قررت لعلومه من مناقبكم، وبعد شأوكم، وغريب محاكم، ما شهدت به آثاركم الشائعة، الخالدة في الرسائل المتأدية، وعلى ألسنة الصادر والوارد من الكافة، من حمل الدولة، واستقامة السياسة، ووقفته على سلامكم، وهو يراجعكم بالتحية، ويساهمكم بالدعاء.

وسلامي على سيدي، وفلذة كبدي ومحل ولدي، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم، أعزه الله، وقد وقع مني موقع البشري حلوله من الدولة بالمكان العزيز، والرتبة النابهة، والله يحلفكم جميعا رداء العافية والستر ويمهد لكم محل الغبطة والأمن، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته، ويجزيكم على عوائد لطفه وعنايته، والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم: عبد الرحمن بن خلدون، ورحمة الله وبركاته في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبع مائة.

وكان بعث إلي مع كتابه نسخة إلى سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس، عندما دخل جبل الفتح، وصار إلى إيالة بني مرين، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب، فرأيت أن أثبته هنا وإن لم يكن من غرض التأليف

لغربته، ونهايته في الجودة، وإن مثله لا يهمل من مثل هذا الكتاب. مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها. ونص الكتاب:

بانوا فمن كان باكيا يبكي　　هذي ركاب السرى بلا شك

فمن ظهور الركاب معملة　　إلى بطون الربى إلى الفلك

تصدع الشمل مثلما انحدرت　　إلى صبوب جواهر السلك

من النوى قبل لم أزل حذرا　　هذي النوى جل مالك الملك

مولاي. كان الله لكم وتولى أمركم. أسلم عليكم سلام الوداع، وأدعو الله في تيسير اللقاء والاجتماع، بعد التفرق والانصداع، وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب في حكم الخواطر والأفكار، وأن لابد لكل أول من آخر، وأن التفرق لما لزم كل اثنين بموت أو في حياة، ولم يكن منه بد، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور.

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم، ومقامه لديكم بحال قلق وقلعة، لولا تعليلكم، ووعدكم، وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم، وقطع مراحل الأيام حريصا على استكمال سنكم، ونهوض ولدكم واضطلاعهم بأمركم، وتمكن هدنة وطنكم، وما تحمل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم، وما استقر بيده من عهودكم، وأن العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز، ونجح السعي، وتأتي لسنين كثيرة الصلح، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مشغب من القرابة، وتحرك لمطالعة الثغور الغربية، وقرب من فرضة المجاز، واتصال

الأرض ببلاد المشرق، طرقته الأفكار، وزعزعت صبره رياح الخواطر، وتذكر إشراف العمر على التمام، وعواقب الاستغراق، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض، فغلبته حال شديدة هزمت التعشق بالشمل الجميع، والوطن المليح، والجاه الكبير، والسلطان القليل النظير، وعمل بمقتضى قوله: «موتوا قبل أن تموتوا». فإن صحت هذه الحال المرجو من إمداد الله، تنقلت الأقدام إلى أمام، وقوي التعلق بعروة الله الوثقى، وإن وقع العجز، وافتضح العزم، فالله يعاملنا بلطفه.

وهذا المرتكب مرام صعب، لكن سهله علي أمور: منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد، لم يتعين على غير هذه الصورة، إذ كان عندكم من باب المحال. ومنها أن مولاي لو سمح لي في غرض الانصراف، لم تكن لي قدرة على موقف وداعه، لا والله! ولكان الموت أسبق إلي، وكفى بهذه الوسيلة الحبية- التي يعرفها- وسيلة.

ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواي فيما كنت أهتف به، وأظن أني لا أصدق. ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان، والهدنة الطويلة، والاستغناء، إذ كان الانصراف المفروض ضروريا قبيحا في غير هذه الحال. ومنها- وهو أقوى الأعذار- أنني مهما لم أطق تمام هذا الأمر، أو ضاق ذرعي به، لعجز، أو مرض، أو خوف طريق، أو نفاد زاد، أو شوق غالب، رجعت رجوع الأب الشفيق، إلى الولد البر والرضي، إذ لم أخلف ورائي مانعا من الرجوع، من قول قبيح أو فعل، بل خلفت الوسائل المرعية، والآثار الخالدة، والسير الجميلة، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي، وكبار وطني، وأهل طوري، وتركتكم على أتم ما أرضاه، مثنيا عليكم، داعيا لكم. وإن فسح الله في الأمد، وقضى الحاجة، فأملي

العودة إلى ولدي وتربيتي، وإن قطع الأجل، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله.

فإن كان تصرفي صوابا، وجاريا على السداد، فلا يلام من أصاب، وإن كان عن حمق، وفساد عقل، فلا يلام من اختل عقله، وفسد مزاجه، بل يعذر، ويشفق علي ويرحم، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب، وحشرت بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات، من التربية والتعليم وخدمة السلف وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان، والإرشاد للأعمال الصالحة والمداخنة والملابسة، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر، ولا غش في تدبير.

ولا تعلق به عار، ولا كدره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، فإن لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والإبقاء، ففيم تكون بين بني آدم.

وأنا قد رحلت. فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولدَ فهم رجالكم، وخدامكم، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مربيات بيتكم، وخواص داركم؛ إنما أوصيكم بحظي العزيز- كان- علي بوطنكم، وهو أنتم، فأنا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصة، أوصيكم بتقوى الله، والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجد، والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها «لينظرَ كيف تعملون». وأطلب منكم عوض ما وفرته عليكم، من زاد طريق، ومكافأة وإعانة، زادا سهلا عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمدا؛ وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت.

واعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر،

وعند كل ملك، واعتقاده، وبره، والسؤال عنه، وذكره بالجميل، والإذن في زيارته، نجابة منكم، وسعة ذرع ودهاء، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت، وتركت الأزاهر تفوح، والمحاسن تلوح، ومثاله معكم مثال المرضعة أرضعت السياسة، والتدبير الميمون، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان، وغطتكم بقناع العافية، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللبن والوضر، وتعود، فإن وجدت الرضيع نائما فحسن، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الفطام. ونختم لكم هذه الغزارة بالحلف الأكيد: إني ما تركت لكم وجه نصيحة في دين، ولا في دنيا، إلا وقد وفيتها لكم، ولا فارقتكم إلا عن عجز، ومن ظن خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم، والله يرشدكم ويتولى أمركم. ونقول: خاطركم في ركوب البحر.

وكتب آخر النسخة يخاطبني:

هذا ما تيسر، والله ولي الخيرة لي ولكم من هذا الخباط الذي لا نسبة بينه وبين ولي الكمال. ردنا الله إليه، وأخلص توكلنا عليه، وصرف الرغبة إلى ما لديه.

وفي طي النسخة مدرجة نصها:

رضي الله عن سيادتكم. أونسكم بما صدر كني أثناء هذا الواقع مما استحضره الولد في الوقت، وهو يسلم عليكم بما يجب لكم، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظ وافر، وأجزل إحسانه، ونوه بجرايته، وأثبت الفرسان خلفه. والحمد لله انتهى.

ثم اتصل مقامي ببسكرة، والمغرب الأوسط مضطرب بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز، وحمرة بن علي بن راشد ببلاد مغراوة، والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره بحصن تاجحمومت، وأبو

زيان العبد الوادي ببلاد حصين، وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته.

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود، ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه، فاستدعاه إلى تلمسان، وقبض عليه، وبعث به إلى فاس معتقلا، فحبس هناك، وجهز العساكر مع الوزير أبي بكر بن غازي، فنهض إليه، وحاصره ففر من الحصن، ولحق بمليانة مجتازا عليها، فأنذر به عاملها فتقبض عليه، وسيق إلى الوزير في جماعة من أصحابه، فضرب أعناقهم، وصلبهم عظة ومزدجرا لأهل الفتنة.

ثمأوعز السلطان إلى الوزير بالمسير إلى حصين، وأبى زيان، فسار في العسكر، واستنفر أحياء العرب من زغبة فأوعبهم، ونهض إلى حصين، فامتنعوا بجبل تيطري، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على الجبل تيطري من جهة التل، فاخذ بمخنقهم، وكاتب السلطان أشياخ الداودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطري من جهة القبلة. وكاتب أحمد بن مزني صاحب بسكرة بإمدادهم بأغطيتهم وكتب إلي يأمرني بالمسير بهم بذلك، فاجتمعوا علي، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين، حتى نزلنا بالقطفة، ووفدت، في جماعة منهم، على الوزير بمكانه من حصار تيطري، فحد لهم حدود الخدمة، وشارطهم على الجزاء. ورجعنا إلى أحيائهم بالقطفة، فاشتدوا في حصار الجبل، وألجئوهم بسوامهم وظهرهم إلى قنته، فهلك لهم الخف والحافر، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب، وراسل بعضهم في الطاعة خفية، فارتاب بعضهم من بعض، فانفضوا ليلا من الجبل، وأبو زيان معهم، ذاهبين إلى الصحراء؛ واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم.

ولما بلغوا مأمنهم من القفز، نبذوا إلى أبي زيان عهده. فلحق بجبال

غمرة، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان، وفاءوا إلى طاعته، فتقبل فيئتهم، وأعادهم إلى أوطانهم. وتقدم إلي الوزير- عن أمر السلطان- بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سباع، للقبض على أبي زيان في جبل غمرة، وفاء بحق الطاعة، لأن غمرة من رعاياهم، فمضينا لذلك، نجده عندهم، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد واركلا من مدن الصحراء، فنزل على صاحبها أبي بكر بن سلميان، فانصرفنا من هنالك. ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك، وأقمت منتظرا أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته، فارتحلت إليه.

(11)
الرسائل والمكاتبات

يقول ابن خلدون:

وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا ساجل مداه، ولا يهتدي فيها بمثل هداه.

فمما كتب عن سلطانه إلى سلطان تونس جوابا عن كتاب وصل إليه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، فراجعهم عنه بما نصه إلى آخره:

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستلقت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم، وفرضها اللازم، الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف، فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العميم، كما تأرجت الرياض الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف، ودعاؤنا بطول بقائها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السماوات العلا الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة، وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود، ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف. خلافة وجهة تعظيمنا إذ توجهت الوجوه، ومن نؤثره إذا أهمنا ما نرجوه، ونفديه ونبديه إذ أستمنح المحبوب وأستدفع المكره، السلطان الكذا ابن أبي إسحاق ابن السلطان الكذا، أبي زكريا

ابن الشيخ الكذا، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص، أبقاه الله ومقامهعلى من يتخطف الناس من حوله مؤيدا بالله معانا.

معظم قدره العالي على الأقدار، ومقابل داعي حقه بالاتبدار، المثنى على معاليه المخلدة الآثار، في أصونة النظام ؟؟؟، ثناء الروضة المعطار، على الأمطار،الداعي إلى الله بطول بقائه في عصمة منسدلة الأستار، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وأن يختم له بلوغ غايات الحال، ونهاية الأعمال، بالزلفى وعقبى الدار.

(عبد الله الغني بالله أمير المسلمين، محمد ابن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر).

سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وروت ثغور الأقاحي والبهار، عن مسلسلات الأنهار، وتجلى على منصة الاشتهار، وجه عروس النهار، يخص خلافتكم الكريمة النجار، العزيزة الجار، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الأرواح «أجنادا مجندة»- كما ورد في الخبر- تحن إلى أجناسها، منجد هذه الملة من أوليائه الجلو بمن يروض الآمال بعد شماسها، وييسر الأغراض منجد هذه الملة من أوليائه الجلة بمن يروض الآمال بعد شماسها، وييسر الأغراض قبل التماسها، ويعني بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين أخلاق لباسها، والملك الحق، وأصل الأسباب (بحوله) بعد انتكاث أمراسها، ومغني النفوس بطوله، بعد إفلاسها حمدا يدر أخلاق النعم بعد إبساسها، وينشر رمم الآمال من أرماسها، ويقدس النفوس بصفات ملائكة السماوات بعد إبلاسها.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها عند اقتناء الأنوار واقتباسها، مطهر الأرض من أوضارها وأدناسها، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام ما بين شيثها وإلباسها، الآتي مهيمنا على آثارها، في حين فترتها ومن بعد نصرتها واستيئاسها، مرغم الضراغم في أخياسها، بعد افترارها وافتراسها، ومعفر أجرام الأصنام ومصمت أجراسها.

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه، حماة شرعته البيضاء وحراسها، وملقحي غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدجى تتكفل مناجاة السميع العليم، في وحشة الليل البهيم بإيناسها، وتفاوح نسيم الأسحار، عند الاستغفار، بطيب أنفاسها.

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالصنائع التي تشعشع أيدي العزة القعساء من أكواسها، ولا زالت العصمة الإلهية كفيلة باحترامها واحتراسها، وأنبأة الفتوح، المؤيدة بالملائكة والروح، ريحان جلاسها وآيات المفاخر التي ترك الأول للآخر، مكتتبة الأسطار بأطرسها، وميادين الوجود مجالا لجياد جودها وبأسها، والعز والعدل منسوبين لفسطاطها وقسطاطها، وصفيحة النصر العزيز تقبض كفها، المؤيد بالله، على رياسها، عند اهتياج أضدادها، وشره أنكاسها، لانتهاب البلاد وانهاسها وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها.

فإنا كتبناه إليكم- طيب الله لكم من كتائب نصره أمدادا تذعن أعناق الأنام، لطاعة ملككم المنصور الأعلام، عند إحساسها، وآتاكم من آيات العنايات، أية تضرب الصخرة الصماء، ممن عصاها، فتبادر بانبجاسها، من حمراء غرناطة، حرسها الله، وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام،

تحتفل وفود الملائكة الكرام، لولائمها وأعراسها، وطواعين الطعان، في عدو الدين المعان، تجدد عهدها بعمام عمواسهما.

والحمد لله حمدا معادا يقيد شوارد النعم، ويستدر مواهب الجود والكرم ويؤمن من انتكاث الجدود وانتكاسها، ولي الآمال ومكاسها، وخلافتكم هي المثابة التي يزهى الوجود بمحاسن مدها، زهو الرياض بورودها وآسها، وتستمد أضواء الفضائل من مقابسها، وتروي رواة الإفادة، والإجادة غريب الوجادة، عن ضحاكها وعباسها. وإلى هذا أعلى الله معارج قدركم، وقد فعل، وأنطق بحجج فخركم من احتفى وانتعل، فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه، على صنائع الله لنا، تميمة لا تقلع بعدها عين، وجعلناه- على حلل مواهبه- قلادة لا يحتاج معها زين، دعوناه من جيب الكنانة آية بيضاء الكتابة، لم يبق معها شك ولا مين؛ وقرأنا منه وثيقة ود هضم فيها عن غريم الزمان دين، ورأينا منه إنشاء، خدم اليراع بين يديه وشاء، واحتزم بهميان عقدته مشاء، وسئل عن معانيه الاختراع فقال: «إنا أنشأناهن إنشاء»، فأهلا به من عربي أبي يصف السانح والبانة، ويبين فيحسن الإبانة، أدى الأمانة، وسئل عن حيه فانتمى إلى كنانه، وأفصح وهو لا ينبس، وتهلك قسماته وليل حبه يعبس، وكأنه هاتمه المقفل على صوانه، المتحف بباكر الورد في غير أوانه، رعف من مسك عنوانه، ولله من قلم دبج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل، فلقد تخارق في الجود، مقتديا بالخلافة التي خلد فخرها في الوجود، فجاد بسر البيان ولبابه، وسمح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه، وجمع لفرط بشاشته وفهامته، بعد شهادة السيف بشهامته، فمشى من الترحيب، في الطرس الرحيب، على أم هامته.

وأكرم به من حكيم، أفصح بملغوز الإكسير، في اللفظ اليسير، وشرح بلسان الخبير، سر صناعة التدبير، كأنما خدم الملكة الساحرة، بتلك البلاد، قبل اشتجار الجلاد، فآثرته بالطارف من سحرها والتلال، أو عثر بالمعلقة، وتيك القديمة المطلقة، بدفينة دار، أو كنز تحت جدار، أو ظفر لباني الحنايا، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا، ببديعة، أو خلف جرجير الروم، قبل منزلة القروم، على وديعة، أو أسلمه بن أبي سرح، في نشب للفتح وسرح، أو حتم له روح ابن حاتم ببلوغ المطلب، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب، أو خصه زيادة الله بمزيد، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد، أو سار على منهاج، في مناصحة بني صنهاج، وفضح بتخليد أمداحهم كل هاج.

وأعجب به، وقد عزز منه مثنى البيان بثالث، فجلب سحر الأسماع، واسترقاق الطباع، بين مثان للإبداع ومثالث، كيف اقتدر على هذا المجيد، وناصح مع التثليث مقام التوحيد، نستغفر الله ولي العون، على الصمت والصون، فالقلم هو الموحد قبل الكون، والمتصف من صفات السادة، أولي العبادة، بضمور الجسم وصفرة اللون، إنما هي كرامة فاروقية، وأثارة من حديث سارية وبقية، سفر وجهها في الأعقاب، بعد طول الانتقاب، وتداول الأحقاب، ولسان مناب، عن كريم جناب، وإصابة السهم لسواه محسوبة، وإلى الرامي الذي سدده منسوبة، ولا تنكر على الغمام بارقة، ولا على المتحققين بمقام التوحيد ركامة خارقة، فما شاءه الفضل من غرائب بر وجد، ومحاريب خلق كريم ركع الشكر فيها وسجد، حديقة بيان استثارت نواسم الإبداع من مهبها، واستزادت غمائم الطباع من مصبها، فأتت أكلها مرتين بإذن ربها، لا. بل كتيبة عز طاعنت بقنا الألفات سطورها، فلا

يرومها النقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي النونات خطوطها، واصطفت من بياض الطرس، وسواد النفس، بلق تحوطها.

فمت كأس المدير، على الغدير، بين الخرونق والسدير، تقامر برد الحباب، عقول ذوي الألباب، وتغرق كسرى في العباب، وتهدي،- وهي الشمطاء- نشاط الشباب؛ وقد أسرج ابن سريج وألجم، وأفصح الغريض بعد ما جمجم، وأعرب الناي الأعجم، ووقع معبد بالقضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب، وكأن الأنامل فوق مثالث العود ومثانيه، وعند إغراء الثقيل بثانية، وإجابة صدى الغناء بين مغانيه، المرواد تشرع في الوشي، أو العناكب تسرع في المشي، وما المخبر بنيل الرغائب، أو قدوم الحبيب الغائب، لا. بل إشارة البشير، بكم المثير، على العسير، بأجلب للسرور، من زائره المتلقي بالبرور، وأدعى للحبور، من سفيره المبهج السفور، فلم نر مثله من كتيبة كتاب تجنب الجرد، تمرح في الأرسان، وتتشوف مجالي ظهورها إلى عرائس الفرسان، وتهز معاطف الارتياح، من صهيلها الصراح، بالنغمات الحسان، إذا أوجست الصريخ نازعت أفناء الأعنة. وكاثرت بآسنة آذانها مشرعة الأسنة، فإن ادعى الظليم أشكالها فهو ظالم، أو نازعها الظبي هواديها وأكفالها فهو هاذأوحالم، وإن سئل الأصمعي عن عيوب الغرر والأوضاح، قال مسيرا إلى وجوهها الصباح: جدلة بين العين والأنف سالم.

من كل عبل الشوى، مسابق للنجم إذا عهوى، سامي التيليل، عريض ما تحت الشليل، ممسوحة أعطافه بمنديل النسيم البليل.

من أحمر كالمدام، تجلى على الندام، عقب الفدام، أتحف لونه بالورد. في زمن البرد، وحيى أفق محياه بكوكب السعد، وتشوف الواصفون إلى

عد محاسنه فأعيت على العد، بحر ساجل البحر عند المد، وريح تباري الريح عند الشد، بالذراع الأشد؛ حكم له مدير فلك الكفل باعتدال فصل القد، وميزة قدره المميز على الكمال، بين البياض والحمرة ونقاء الخد، وحفظ رواية الخلق الوجيه، عن جده الوجيه، ولا تنكر الرواية على الحافظ ابن الجد.

وأشقر، أبي الخلق، والوجع الطلق أن يحقر، كأنما صيغ من العجد، وطرف بالدر وأنعل بالزبرجد، ووسم في الحديث بسمة اليمن والبركة، واختص بفلج الخصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمضاعف السهام، المنكسرة على الهام، في الفرائض المشتركة، وأتصف فلك كفله بحركتي الإدارة والطبع من أصناف الحركة، أصغى إلى السماء بأذن ملهم، وأغرى لسان الصهيل، عند التباس معاني الهمز والتسهيل- ببيان المبهم، وفتنت العيون من ذهب جسمه، ولجين نجمه، بالدينار والدرهم،فإن انقض فرجم، أو ريح لها حجم، وإن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم.

وأصفر قيد الأوابد الحرة، وأمسك المحاسن وأطلق الغرة، وسئل من أنت في قواد الكتائب، وأولى الأخبار العجائب؟ فقال: أنا المهلب بن أبي صفرة ونرجس هذه الألوان، في رياض الأكوان، تحتي به وجوه الحرب العوان، أغار بنخوة الصائل على معصفرات الأصائل، فارتداها، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حلته وأسداها، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداها، فهو أصيل تمسك بذيل الليل عرفة وذيله، وكوكب يطلعه من القتام ليله، فيحسده فرقد الأفق وسهيله.

وأشهب تغشى من لونه مفاوضة، وتسربل منه لأمة فضفاضة، قد احتفل زينه، لما رقم بالنبال لجينه، فهو الأشمط، الذي حقه لا يغمط،

والدراع المسارع، والأعزل الذراع، وراقي الهضاب الفارع، ومكتوب الكتيبة البارع. وأكرم به من مرتاض سالك، ومجتهد على غايات السابقين الأولين متهالك، وأشهب يروي من الخليفة، في الشيم المنفية، عن مالك.

وحباري كلما سابق وبارى، استعار جناح الحبارى، فإذا أعملت الحسبة، قيل من هنا جاءت النسبة، طرد لنمر، لما عظم أمره وأمر. فنسخ وجوده بعدمه، وابتزه الفروة ملطخة بدمه، وكأن مضاعف الورد نثر عليه من طبقه، أو الفلك، لما ذهب الحلك، مزج فيه بياض صبحه بحمرة شفقه.

وقرطاسي حقه لا يجهل، «متى ما ترقى العين فيه تسفل، إن نزع عنه جله، فهو نجم كله، نفرد بمادة الألوان، قبل أن تشوبها يد الأكوان، أو تمزجها أقلام الملوان، يتقدم الكتيبة منه لواء ناصع، أو أبيض مناصع، لبس وقار المشيب، في وريعان العمر القشيب، وأنصتت الآذان من صهيله النطيلالمطيب، لما ارتدى بالبياض إلى نغمة الخطيب، وإن تعتب منه للتأخير متعتب، قلنا: الواو لا ترتب، ما بين فحل وحرة، وبهرمانة ودرة، وبالله من ابتسام غرة، ووضوح يمن في طرة، وبهجة للعين وقرة، وإن ولع الناس بامتداح القديم، وخصوا الحديث بفري الأديم، وأوجب المتعصب، وإن أبى المنعيب، مرتبة التقديم، وطمح إلى رتبة المخدوم طرف الخديم، وقورن المثري بالعديم، وبخس في سوق الكسد الكيل، ودجا الليل، وظهر في فلك الإنصاف الميل، لما تذوكرت الخيل، فجيء بالوجيه والخطار، والذائد وذي الخمار، وداحس والسكب، والأبجر وزاد الركب، والجموح واليحموم، والكميت ومكتوم،والأعوج وحلوان، ولاحق،

والغضبان، وعفزر والزعفران والمحبر واللعاب، والأغر والغراب، وشغله العقاب، والفياض واليعبوب، والمذهب واليعسوب، والصموت والقطيب، وهيدب والصبيب، وأهلوب وهداج، والحرون وخراج، وعلوى والجناح، والأحوى ومجاح، والعصا والنعامة، والبلقاء والحامة، وسكاب والجرادة، وخوضاء والعرادة، فكم بين الشاهد والغائب، والفروض الرغائب، وفرق ما بين الأثر والعيان، غني من البيان، وشتان بين الصريح والمشتبه، ولله در القائل: «خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به».

والناسخ، يختلف به الحكم، وشر الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب الدسم البكم، إلا ما ركبه نبي، أو كان له يوم الافتخار برهان خفي ومفضل ما سمع على رأي غبي، فلو أنصفت محاسنها التي وصفت، لأقضمت حب القلوب علفا، وأوردت ماء الشيبية نطفا، واتخذت لها من عذر الخدود الملاح عذر موشة، وعللت بصفير ألحان القيان كل عشية، وأنعلت بالأهلة، وغطيت بالرياض بدل الأجلة.

إلى الرقيق، الخليق بالحسن الحقيق، يسوقه إلى مثوى الرعاية روقة الفتيان رعاته، ويهدي عقيقها من سبجه أشكالا تشهد للمخترع سبحانه بإحكام مخترعاته، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم، لما بهره منظرها الوسيم، وتحامل الظليم، وتضاؤل الريم وأخرس مفوه اللسان، وهو بملكات البيان، الحفيظ العليم، وناب لسان الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال، فقال يخاطب المقام الذي أطلعت أزهار غمائم جوده، واقتضت اختيارها بركات وجوده: لو علمنا أيها الملك الأصيل، الذي كرم منه الإجمال والتفصيل، أن الثناء يوازيها، لكلنا لك بكيلك، أو الشكر يعادلها ويجازيها، لتعرضنا بالوشل، إلى نيل نيلك، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ

سلفك المستنصر بقوله: أدرك بخيلك، حين شرق بدمعه الشرق، وانهزم الجمع واستولى الفرق، واتسع فيه- والحكم لله- الخرق ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التثليث، وحزبه الخبيث، الأولى والأحق.

والآن قد أغنى الله بتلك النية، عن اتخاذ الطوال الردينية، وبالدعاء من تلك المثابة الدينية إلى رب البنية، عن الإمداد السنية والأجواد تخوض بحر الماء إلى بحر المنية، وعن الجرد العربية، في مقاود الليوث الأبية، وجدد برسم هذه الهدية، مراسيم العهود الودية، والذمم الموحدية، لتكون علامة على الأصل، ومكذبة لدعوى الوقف، والفصل، وإشعارا بالألفة التي لا تزال ألفها ألف الوصل، ولامها حراما على النصل.

وحضر بين يدينا رسولكم، فقرر من فضلكم ما لا ينكره من عرف علو مقداركم، وأصالة داركم، وفلك إبداركم، وقطب مداركم، وأجبناه عنه بجهد ما كنا لنقنع من جناه المهصر، بالمقتضب المختصر، ولا لنقابل طول طوله بالقصر، لولا طرو الحصر.

وقد كان بين السلاف- رحمة الله عليهم ورضوانه- ود أبرمت من أجل الله معاقده، ووثرت للخلوص، الجلي النصوص، مضاجعة القارة ومراقده، وتعاهد بالجميل يوجع لفقده فاقده، أبى الله إلا أن يكون لكم الفضل في تجديده، والعطف بتوكيده، فنحن الآن لا ندري أي مكارمكم نذكر، أو أي فواضلكم نشرح أو نشكر، أمفاتحتكم التي هي في الحقيقة عندنا فتح، أم هديتكم، وفي وصفها للأقلام سبح، ولعدو الإسلام بحكمة حكمتها كبح، إنما نكل الشكر لمن يوفي جزاء الأعمال البرة، ولا يبخس الذرة ولا أدنى من مثقال الذرة، ذي الرحمة الثرة، والألطاف المتصلة المستمرة، لا إله إلا هو.

وإن تشوقتم إلى الأحوال الراهنة، وأسباب الكفر الواهية- بقدرة الله- الواهنة، فنحن نطرفكم بطرفها، ونطلعكم على سبل الإجمال بطرفها، وهو أننا لما أعادنا من التمحيص، إلى مثابة التخصيص، من بعد المرام العويص، كحلنا بتوفيق الله بصر البصيرة، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القصيرة، ورأينا كما نقل إلينا، وكرر على من قبلنا وعلينا- أن الدنيا- وإن غر الغرور وأنام على سرر الغفلة السرور، من حبي به ولا يحبر، إنما هو خبر، وأن الحسرة بمقدار ما على تركه يجبر، وأن الأعمار أحلام، وأن الناس نيام، وربما رحل الراحل عن الخان، وقد جلله بالذي والدخان، أو ترك به طبيبا، وثناؤه يقوم بعد للآتي خطيبا، فجعلنا العدل في الأمور ملاكا، والتفقد للثغور مسواكا، وضجيج المهاد، حديث الجهاد، وأحكامه مناط الاجتهاد، وقوله:)يأيها الذين أمنوا هل أدلكم على تجارة(من حجج الاستشهاد، وبادرنا زمق الحصون المضاعة وجنح التقية دامس، وعواريها لا ترد يدلتمس، وسكانها بائس، والأعصم في شفاتها من العصمة يائس، فربنا ببيض الشرفات ثناياها، وأفعمنا بالعذاب الفرات ركاياها وغشينا بالصفيح المضاعف أبوابها، واحتسبنا عند موفي الأجور ثوابها، وبيضنا بناصع الكلس أثوابها، فهي اليوم توهم حس العيان، أنها قطع من بيض العنان، وتكاد تناول قرص البدر بالبنان، متكلفة للمؤمنين من فزع الدنيا والآخرة بالأمان، وأقرضنا الله قرضا، وأوسعنا مدونة الجيش عرضا، وفرضنا إنصافه مع الأهلة فرضا، واستندنا عن التوكل على الله الغني الحميد إلى ظل لواء، ونبذنا إلى الطاغية عهده على سواء وقلنا: ربنا أنت العزيز، وكل جبار لعزك ذليل، وحزبك هو الكثير، وما سواه قليل، أنت الكافي، ووعدك الوعد

الوافي، فأفض علينا مدارع الصابرين، واكتبنا من الفائزين بحظوظ رضاك الظافرين، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

فتحركنا أول الحركات، وفاتحة مصحف البركات، في خف من الحشود، واقتصار على ما بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود، إلى حصن آشر البازي المطل، وركاب العدو الضال المضل، ومهدي نفثات الصل، على امتناعه وارتفاعه، وسمو يفاعه، وما بذل العدو فيه من استعداده، وتوفير أسلحته وأزواده، وانتخاب أنجاده، فصلينا بنفسنا ناره، وزاحمنا عليه الشهداء نصابر أواره ونلقى بالجوارح العزيزة سهامه المسمومة، وجلاميده الملمومة وأحجاره، حتى فرعنا- بحول من لا حول ولا قوة إلا به- أبراجه المنيعة وأسواره، وكففنا عن البلاد والعباد ضراره، بعد استضفنا إليه حصن السهلة جاره؛ ورحلنا عنه بعد إن شحناه رابطة وحامية، وأزواجا نامية، وعملنا بيدنا في رم ما ثلم القتال، وبقر من بطون مسابقة الرجال، واقتدينا بنبينا- صلوات الله عليه وسلامه- في الخندق لما حمى ذلك المجال، ووقع الارتجاز المنقول حديثه والارتجال، وما كان ليقر للإسلام مع تركه القرار، وقد كتب الجوار، وتداعى الدعرة وتعاوى الشرار.

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة برغه التي سدت بين القاعدتين رندة ومالقة الطريق، وألبست ذل الفراق ذلك الفريق، ومنعتها أن يسيغا الريق، فلا سبيل إلى الإلمام، لطيف المنام، إلا في الأحلام، ولا رسالة إلا في أجنحة هدل الحمام، فيسر الله فتحها، وعجل منحها، بعد حرب انبتت فيها النحور، وتزينت الحور. وتبع هذه الأم بنات شهيرة، وبقع للزرع والضرع خيره، فشفي الثغر من بؤسه،

وتهلل وجه الإسلام بتلك الناحية الناجية بعد عبوسه.

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة، على بعد المدى، وتغلغلها في بلاد العدا، واقتحام هول أفلا وغول الردى؛ مدينة تنبتها حمص فأوسعت الدار، وأغلت الشوار، وراغت الاستكثار، وبسطت الاعتمار، رجح لدينا قصدها على البعد، والطريق الجعد، ما أسفت له المسلمين من استئصال طائفة من أسرارهم، مروا بها آمنين، وبطائرها الكشؤوم متيمين، قد أنهكك الاعتقال، والقيود الثقال، وأضرعهم الإسار وجللهم الانكسار، فجادلوهم في مصرع واحد، وتركوهم عبرة للرائي والمشاهد، وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام ثكل الواجد، وترة الماجد، فكبسناها كبسا، وفجأناها بإلهام من لا يضل ولا ينسى، وصحبتها الخيل، ثم تلاحق الرجل لما جن الليل، وحاق بها الويل، فأبيح منها الذمار، وأخذها الدمار، ومحقت من مصانعها البيض الأهلة وخسفت الأقمار، وشفيت من دماء أهلها الضلوع الجرار، وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من سبيها الإسار، وانتهى إلى أشبيلية الثكلى المغار فجلل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تقله الأوقار.

وعدنا والأرض تموج سيبا، لم نترك بعفرين شبلا، ولا بوجرة ظبيا والعقائل، حسرى، والعيون يبهرها الصنع الأسرى وصبح السرى قد حمد منَ بعد المسرى فسبحان الذي أسرى، ولسان الحمية ينادي، في تلك الكنائس المخرية والنوادي: يا لثارات الأسرى!

ولم يمكن إلا أن نفلت الأنفال، ووسمت بالأوضاح الإغفال، وتميزت الهوادي والأكفال، وكان إلى غزو مدينة جيان لاحتفال، قدنا إليها الجرد

تلاعب الظلال نشاطا، والأبطال تقتحم الأخطار رضى بما عند الله واغتباطا، والمهندة الدلق تسق إلى الرقاب استلالا واختراطا، واستكثرنا من عدد القتال احتياطا. وأزحنا العلل عمن أراد جهادا منجيا غباره من دخان جهنم ورباطا، ونادينا الجهاد! الجهاد! يا أمة الجهاد! راية النبي الهاد! الجنة تحت ظلال السيوف الحداد! فهز النداء إلى الله تعالى كل عامر وغامر، وائتمر الجم من دعوى الحق إلى أمر، وأتى الناس من الفجوج العميقة رجالا وعلى كل ضامر، وكاثرت الرايات أزهار البطاح لونا وعدا، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سدا، ومد بحرها الزاخر مدا، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حدا.

وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكرسي الملك، ومجنبة الوسطى من السلك، بات بالمزايا العديدة ونجحت، وعند الوزان بغيرها من أمات البلدان، رجحت، غاب الأسود، وجحر الحيات السود، ومنصب التماثيل الهائلة، ومعلق النواقيس الصائلة.

فأدنينا إليها المراحب، وعنينا ببحار المحلات المستقلات منها الساحل، ولما أكثبنا جوارها، وكدنا نلتمح نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم، بزهر النجوم، قد دار دائرة، والليل من خوف الصباح، على سطحه المستباح، قد شابت غدائره، والنسر يرفرف باليمين طائره، والسماك الرامح يثأر بعز الإسلام ثائره، والنعائم راعدة فرائص الجسد، من خوف الأسد، والقوس يرسل سهم السعادة، بوتر العادة، إلى أهداف النجم المعادة، والجوزاء عابرة نهر المجرة، والزهرة تغار من الشعرى العبور بالضرة، وعطارد يسدي في حبل الحروب، على البلد المحروب ويلمحه، ويناظر على أشكالها الهندسية فيفحمه، والأحمر يبهر، وبعلمه

الأبيض يغري وينهر، والمشتري يبدي في فضل الجهاد ويعيد، ويزاحم في الحلقات، على ما للسعادة من الصفقات، ويزيد، وزحل عن الطالع منذ رحل، وعن العاشر مرتحل، وفي زلق السعود وجِل، والبدر يطالع حجر المنجنيق، كيف يهوي إلى النيق، ومطلع الشمس يرقب، وجدار الأفق يكاد بالعيون عنها ينقب.

ولما أشار سر الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفراش، والفحول على العرائس، فنظرنا منظرنا منظرا يروع بأسا ومنعة، ويروق وضعا وصنعه، تلفعت معاقله الشم للسحاب ببرود، ووردت من غدر المزن في برود، وأشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين النطاق معاصم رود، وبلدا يعيي الماسح والذارع، وينتظم المحاني والأجارع، فقلنا: اللهم نفله أيدي عبادك، وأرنا فيه آية من آيات جهادك، ونزلنا بساحتها العريضة المتون، نزول الغيث الهتون، وتيمنا من فحصها بسورة التين والزيتون، متبرئة من أمان الرحمن للبلد المفتون، وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة، وسجية شجاعتهم البئيسة، عن أن تبوأ للقتال المقاعد، وتدني بإسماع شهير النفير منهم الأباعد، وقبل أن يلتقي الخديم بالمخدوم، ويركع المجنيق ركعتي القدوم، فدفعوا من أصحر إليهم من الفرسان.

وسبق إلى حومة الميدان، حتى أحجروهم في البلد، وسلبوهم لباس الجلد، فيموقف يذهل الوالد عن الولد، صابت السهام فيه غماما، وطارت كأسراب الحمام تهدي حماما، وأضحت القنا قصدا، بعد أن كانت شهابا رصدا، وماج بحر القتام بأمواج النصول، وأخذ الأرض الرجفان لزلزال الصياح الموصول، فلا ترى إلا شهيدا تظلل مصرعه الحور، وصريعا

تقذف به إلى الساحل تلك البحور، وانواشب تبأى بها الوجوه الوجيهة عند الله والنحور، فالمقضب، فوده يخضب، والأسمر، غصنه يستثمر، والمغفر، يخفر، وظهور القسى تقصم، وعصم الجند الكوافر تفصم، وورق اليلب في المنقلب سقط، والبيض تكتب والسمر تنقط، فاقتحم الربض الأعظم لحينه، وأظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عزة دينه، وتبرا الشيطان من خدينه، ونهب الكفار وخذلوا، وبكل مرصد جدلوا، ثم دخل البلد بعده غلابا، وجلل قتلا واستلابا، فلا تسل إلا الظبا والسل عن قيام ساعته، وهول يومها وشناعته، وتخريب المبائث والمباني، وغنى الأيدي من خزائن تلك المغاني، ونقل الوجود الأول إلى الوجود الثاني، وتخارق السيف فجاء بغير المعتاد، ونهلت القنا الردينية من الدماء، حتى كادت تورق كالأغصان المفترسة والأوتاد، وهمت أفلاك القسي وسحت، وأرنت حتى بحت، ونفدت موادها فشحت، مما ألحت، وسدت المسالك جثث القتلى فمنعت العابر، واستأصل الله من عدوه الشاقة وقطع الدابر، وأزلف الشهيد وأحسب الصابر، وسبقت رسل الفتح الذي لم يسمع بمثله في الزمن الغابر. تنقل البشرى من أفواه المحابر، إلى آذان المنابر.

أقمنا بها أياما نعقر الأشجار، ونستأصل بالتخريب الجوار، ولسان الانتقام من عبدة الأصنام، ينادي: يا لثارات الإسكندرية تشفيا من الفجار، ورعيا لحق الجار؛ وقفلنا وأجنحة الرايات، برياح العنايات، خافقة، وأوفاق، التوفيق، الناشئة من خطوط الطريق، موافقة، وأسواق العز بالله نافقة، وحملاء الرفق مصاحبة- والحمد لله- مرافقة، وقد ضاقت ذروع الجبال، عن أعناق الصهب السبال، ورفعت على الأكفال، ردفاء

كرائم الأنفال، وقلقلت من النواقيس أجرام الجبال، بالهندام والاحتيال؛ وهلك بمهلك هذه الأم بنات كن يرتضعن ثديها الحوافل، ويستوثرون حجرها الكافل، شمل التخريب أسوارها، وعدلت النار بوارها.

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح، وأرسلنا دلاء الأدلاء قبل المتح، فبشرت بالمنح، وقصدنا مدينة أبدة، وهي ثانية الجناحين، وكبرى الأختين، ومساهمة جيان في حين الحين، مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق، وتمشت فيه أرباضها تمشي الكتابة الجامحة في المهزق، المشتملة على المتاجر والمكاسب، والوضع المتناسب، والفلح المعيي ريعه عمل الحاسب وكوارة الدبر اللاسب المعتددة اليعاسب، فأناخ العفاء، بربوعها العامرة، ودارت كؤوس الحتوف، ببنان السيوف، على متديريها المعاقرة، وصحبتها طلائع الفاقر وأغريت ببطون أسوارها عوج المعاول الباقرة، ودخلت مدينتها عنوة السيف أسرع من خطرة الطيف، ولا تسأل عن الكيف، فلم يلغ العفاء من مدينة وعقيلة في حلل المحاسن رافله، ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت النيران أبراجها، وتضاءل بالرغام معراجها، وضفت على أعطافها الخذلان، وأقفر من كنائسها كناس الغزلان.

ثم أهبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المزاين الوافرة، وربة السافرة، والأنباء المسافرة، قرطبة، وما أدرك ما هية! ذات الأرجاء الحالية الكاسية، والأطوار الراسخة الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهرة والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء درارا، ونهر المجرة من نهرها الفياض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لصق بها جارا، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مدرارا، ورجع الحنين اشتياقا إلى الحبيب الأول

واذكارا حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العذاب المجاج، فيزري بتاج كسري ودارا، حيث قسى الجسور المديدة، كأنها عوج ألمطي العديدة، تعبر النهر قطارا، حيث آثار العامري المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد، شذى معطارا، حيث كرائم السحائب، تزور عرائس الرياض الحبائب، فتحمل لها من الدر نثارا، حيث شمول تدار على الأرواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى، وما هي بسكارى، حيث أيدي الافتتاح، تفتض من شفائق البطاح، أبكارا، حيث ثغور الأقاح الباسم، تقبلها بالسحر زوار النواسم، فتخفق قلوب النجوم الغيارى، حيث المصلى العتيق، قد رحب مجالا وطال منارا، وأزرى ببلاط الوليد احتقارا، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح، تجب عن مثل أسميه المهارى، والبطون كأنها لتدميث الغمائم، بطون العذارى، والأرواح العالية، تخترق أعلامها الهادية، بالجداول الحيارى. فما شئت من جو بقيل، ومعرس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخمائل، كم فيها للبلابل، من قال وقيل، وخفيف يجاوز بثقيل؛ وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب بسوقها، الهمزات على الألفات، والعصافير البديعة الصفات، فوق القضب المؤتلفات، تميل لهبوب الصبا والجنوب، مائلة الجيوب، بدر الحبوب، وبطاح لا تعرف عين المحل، فتطلبه بالدخل، ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار، عند افتتاح السوسن والبهار، غير العبدان من سودان النخل، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله، ولا يبلغ الطية البعيدة راحله، إلى الوادي، وسمر النوادي، وقرار دموع الغوادي، للتجاسر على تخطيه، عند تمطيه، الجسر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفرا الذي في كل صيد، أقل كرسيه خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر

دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام أو تعبر به عن ذلك الكمال فنون الكلام. فأعلمنا إليها السرى والسير، وقدنا إليها الخيل قد عقد الله في نواصيها الخير.

ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب، واصطففنا بخارجها المنبت المنجب، والقلوب تلتمس الإعانة من منعم مجزل، وتستنزل مدد الملائكة من منجد منزل، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد في معاهد الإسلام:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

برز من حاميتها المحامية، ووقود النار الحامية، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية، قطع الغمائم الهامية، وأمواج البحور الطامية، واستجنت بظلال أبطال المجال، أعداد الرجال، الناشبة، والرامية، وتصدى للنزال، من صناديدها الصهب السبال، أمثال الهضاب الراسية، تجنبها جنن الوابغ الكاسية، وقواميسها المفادية للصلبان يوم بوسها بنفوسها الواسية، وخنازيرها التي عدتها عن قبول حجج الله ورسوله، ستور الظلم الغاشية، وصخور القلوب القاسية، فكان بين الفريقين أمام جسرها الذي فرق البحر، وحلى بلجينه، ولآلئ زينة، منها النحر، حرب لم تنسج الأزمان على منوالها، ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة إهمالها، من قاسها بالفجار أفك وفجر، أو مثلها بجفر الهباءة خرف وهجر، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء، فما عرف الخبر، فليسأل من جرب وخبر، ومن نظرها بيوم شعب جبله فهو ذو بله، أو عادلها ببطن عاقل، فغير عاقل، أو احتج بيوم ذي قار، فهو إلى المعرفة ذو افتقار، أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه غير السديد، إنما كان مقاما غير معتاد، ومرعى نفوس سلم يف بوصفه لسان مرتاد وزلزال جبال أوتاد، ومتلف

مذخور لسلطان الشيطان وعتاد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر، وتأود الأسمر العاسل، ودوم الجلمد المتاكسل، وانبعث من حدب الحنية، إلى هدف الرمية، الناشر الناسل، ورويت لمرسلات السهام المراسل، ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السمك في الشباك، ثم اختلط المرعي بالمهمل، وعزل الرديني عن العمل، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا، بعد أن شقت غدر السوابغ خلجانا، واتحدت جداول الدروع، فصارت بحرا، وكان التعانق فلا ترى إلا نحرا يلازم نحرا، عناق وداع، وموقف شمل ذي انصداع، وإجابة مناد إلى فراق الأبد وداع، واستكشفت مال الصبر الأنفس الشفافة، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة، ثم أمد السيل ذلك العباب، وصقل الاستبصار الألباب، واستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: «ادخلوا عليهم الباب»، فأصبحت طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، فمغافرهم قد رضيت حرماتها بالإخفار، ورؤوسهم محطوطة في غير مقام الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج المستطرفة والأسوار، ورفرف على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار، والوقوف عند اختفاء سر الأقدار.

ثم عبرنا نهرنا، وشددنا بأيدي الله قهرها، وضيقنا حصرها، وأدرنا بلآلئ القباب البيض خصرها، وأقمنا بها أياما تحوم عقبان البنود على فريستها حياما، وترمي الأرواح ببوارها، وتسلط النيران على أقطارها، فلولا عائق المط، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر، فرأينا أن نروضها بالأجتثاث والانتصاف، ونوالي على زروعها وربوعها كرات رياح الاعتساف، حتى يتهيأ للإسلام لوك طعمتها، ويتهيأ بفضل الله إرث

نعمتها، ثم كانت من موقفها الإفاضة من بعد نحر النحور، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور، وتدافعت خلفنا السيقات المتسقات تدافع أمواج البحور.

وبعد أن ألححنا على جناتها المصحرة، وكرومها المستبحرة إلحاح الغريم، وعوضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم، وطاف عليها طائف من ربنا فأصبحت كالصريم، وأغرينا حلاق النار بجمم الجميم، وراكمنا في أحواف أجرافها غمائم الدخان، بذكر طيبه ألبان بيوم الغميم، وأرسلنا رياح الغارات ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: 42]، واستقبلنا الوادي يهول مدا، ويروع سيفه الصقيل حدا، فيسره الله من بعد الإعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرصة أيدي الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات فأفتى برجحان الجواز، فعمم الاكتساح والاستباح جميع الأحواز فأذيل المصون، وانتبهت القرى، وهدت الحصون، واجتثت الأصول، وحطمت الغصون، ولم نرفع عنها إلى اليوم غارة تصابحها بالبؤس، وتطلع عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس، فهي الآن مجرى السوابق ومجر العوالي، على التوالي، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي، وكأن بها قد ضرعت، وإلى الدعوة المحمدية أسرعت، بقدرة من لو أنزل القرآن على الجبال لخشعت من خشية الله وتصدعت، وعزة من أذعنت الجبابرة لعزه وخضعت، وعدنا والبنود لا يعرف اللف نشرها، والوجوه المجاهدة لا يخالط التقطيب بشرها، والأيدي بالعروة الوثقى متعلقة، والألسن بشكر الله منطلقة، والسيوف في مضاجع الغمود قلقة، وسرابيل الدروع خلقه، والجياد من ردها إلى المرابط والأواري، رد العواري، حنقه، وبعبرات الغيظ المكظوم مختفية،

تنظر إلينا نظر العاتب، وتعود من ميادين الاختيال والمراح، تحت حلل السلاح، عود الصبيان إلى المكاتب، والطبل بلسان العز هادر، والعزم إلى منادي العود الحميد مبادر، ووجود نوع الرماح، من بعد ذلك الكفاح نادر، والقاسم يرتب بين يديه من السبي النوادر، ووارد مناهل الأجور، غير المخلاء، ولا المهجور، غير صادر، ومناظر الفصل الآتي، عقب أخيه الشاتي، على المطلوب المواتي مصادر والله على تيسير الصعاب، وتخويل المنن الرغاب، قادر، لا إله إلا هو. فما أجمل لنا صنعه الحفي، وأكرم بنا لطفه الخفي، اللهم لا نحصي ثناء عليك، ولا نلجأ منك إلا إليك، ولا نلتمس خير الدنيا والآخرة إلا لديك، فأعد علينا عوائد نصرك، يا مبدئ يا معيد، وأعنا من وسائل شكرك، على ما ينثال له المزيد، يا حي يا قيوم يا فعالا لما يريد.

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حذق فتح بعيد صيته مشرئب ليته، وفخر من فوق النجوم العواتم مبيته، عجبنا من تأتي أمله الشارد، وقلنا: البركة في قدم الوارد، وهو أن ملك النصارى لاطفنا بجملة من الحصون كانت من مملكة الإسلام قد غصبت، والتماثيل فيها ببيوت الله قد نصبت أدالها الله- بمحاولتنا- الطيب من الخبيث، والتوحيد في التثليث، وعاد إليها الإسلام عود الأب الغائب، إلى البنات الحبائب، يسأل عن شؤونها، ويمسح دموع الرقة من جفونها، وهي للروم خطة خسف قلما ارتكبوها فيما نعلم من العهود، ونادرة من نوادر الوجود. وإلى الله علينا وعليكم عوارف الجود، وجعلنا في محاريب الشكر من الركع السجود.

عرفناكم بمجملات أمور تحتها تفسير، ويمن من الله وتيسير، إذ استيفاء الجزئيات عسير لنسركم بما منح الله دينكم، ونتوج بعز الملة

الحنيفية جبينكم، ونخطب بعده دعاءكم وتأمينكم، فإن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاح ماض، وكفيل بالمواهب المسئولة من المنعم الوهاب متقاض، وأنتم أولى من ساهم في بر، وعاقل الله بخلوص سر، وأين يذهب الفضل عن بيتكم، وهو صفة حيكم، وتراث ميتكم، ولكم مزية القدم، ورسوخ القدم، والخلافة مقرها إيوانكم، وأصحاب الإمام مالك- رضي الله عنه- مستقرها قيروانكم، وهجير المنابر ذكر إمامكم، والتوحيد إعلام أعلامكم، والوقائع الشهيرة في الكفر منسوبة إلى أيامكم، والصحابة الكرام فتحة أوطانكم، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائج سلطانكم؛ ونحن نستكثر من بركة خطابكم، ووصلة جنابكم، ولولا الأعذار لوالينا بالمتزيدات تعريف أبوابكم.

والله- عز وجل- يتولى عنا من شكركم المحتوم، ما قصر المكتوب منه عن المكتوم، ويبقيكم لإقامة الرسوم، ويحل محبتكم من القلوب محل الأرواح من الجسوم، وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نعمه عندكم.

والسلام الكريم، الطيب الزكي المبارك البر العميم، يخصكم كثيرا أثيرا، ما أطلع الصبح وجها منيرا، بعد أن أرسل النسيم سفير، وكان الوميض الباسم لأكواس الغمائم، على أزهار الكمائم، مديرا؛ ورحمة الله وبركاته.

وكتب إلي يهنئني بمولود، ويعاتب على تأخير الخبر بولاده عنه:

هنيئا أبا الفضل الرضا وأبا زيد ... وأمنت من بغي يخاف ومن كيد

بطالع يمن طال في السعد شأوه ... فما هو من عمرو الرجال ولا زيد

وقيد بشكر الله أنعمه التي ... أوابدها تأبى سوى الشكر من قيد

(12)
العودة إلى المغرب الأقصى

يواصل ابن خلدون مذكراته فيقول:

ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب، كما ذكرت تفاصيله، وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رياح، وأكثر عطائهم من السلطان مفترض عليه في جباية الزاب، وهم يرجعون إليه الكثير من أمورهم، فلم أشعر غلا وقد حادثت لمنافسة منه في استتباع العرب، ووغر صدره، وصدق في ظنونه وتوهماته، وطاوع الوشاة فيما يوردون على سمعه من التقول والاختلاق، وجاش صدره بذلك؛ فكتب إلى ونزمار بن عريف، ولي السلطان، وصاحب شواره، يتنفس الصعداء من ذلك، فأنهاه إلى السلطان، فاستدعاني لوقته، وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد، ي يوم المولد الكريم، سنة أربع وسبعين، متوجها إلى السلطان، وقد كان طرقه المرض؛ فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط، فلقيني هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر، في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذا السير إلى فاس، وكان على مليانة يومئذ علي بن حسون بن أبي علي اليناطي من قواد السلطان وموالي بيته، فارتحلت معه إلا أحياء العطاف، ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم، وبذرق

بي بعضهم إلى حلة أولاد عريف: أمراء سويد، ثم لحق بنا بعد أيام، علي بن حسون في عسكره، وارتحلنا جميعا إلى المغرب على طريق الصحراء، وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباذه بالفقر في تيكورارين على تلمسان، فاستولى عليها وعلى سائر أعماله، فأوعز إلي بني يغمور من شيوخ عبيد الله (من) المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زا فاعترضونا هنالك، فنجا من نجا منا على خيولهم إلى جبل دبدو، وانتبهوا جميع ما كان معنا، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكنت فيهم، وبقيت يومين في قفره، ضاحيا عاريا إلى أن خلصت إلى العمران، ولحقت بأصحابي بجبل دبدو، ووقع في خلال ذلك من الألطاف ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره. ثم سرنا إلى فاس، ووفدت على الوزير أبي بكحر، وابن عمه محمد بن عثمان بفاس، في جمادي من السنة، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص، منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة، عند إجازته من الأندلس، لطلي ملكه، كما مر في غير موضع من الكتاب، فلقيني من بر الوزير وكرامته، وتوفير جرايته وإقطاعه، فوق ما أحتسب، وأقمت بمكاني من دولتهم أثير المحل، نابة الرتبة، عريض الجاه، منوه المجلس. ثم انصرم فصل الشتاء، وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي، وبين السلطان ابن الأحمر، منافرة بسبب ابن الخطيب، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعائه عنهم، وأنف الوزير من ذلك، فأظلم الجو بينهما، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر، للإجلاب على الأندلس، فبادر ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي، الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، كان حبسهما أيام

السلطان عبد العزيز، وبإشارته بذلك لابن الخطيب حين كان في وزارته بالأندلس، فأطلقهما الآن. وبعثهما لطلب الملك بالمغرب، وأجازهما في الأسطول إلى سواحل غساسة، فنزلوا بها، ولحقوا بقبائل بطوية هنالك، فاشتملوا عليهم، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن، ونهض ابن الأحمر من غرناطة في عساكر الأندلس، فنزل على جبل الفتح يحاصره، وبلغت الأخبار بذلك إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدولة بني مرين، فجهز لحينه ابن عمه محمد بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل، ونهض هو في العساكر إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن، فوجده قد ملك تازى، فأقام عليها يحاصره، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شبابا من بني أبيه المرشحين، فحبسهم بطنجة، فلما وافى محمد بن الكاس سبتة، وقعت المراسلة بينه وبين ابن الأحمر، وعتب كل منهما صاحبه على ما كان منه، واشتد عذل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسي من كفئه، ونصبهم السعيد الن عبد العزيز صبيا لم يثغر، فاستعتب له محمد، واستقال من ذلك، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين بطنجة، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضا بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن، فيفرج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء.

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد أيام ملكه، فبادر من وقته إلى طنجة، وأخرج أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه، وبايع له، وسار به إلى سبتة، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك، ويطلب منه المدد على أن ينزل له عن جبل الفتح، فأمده بما شاء من المال والعسكر، واستولى على جبل الفتح، وشحنه بحاميته، وكان

أحمد ابن السلطان أبي سالم، قد تعاهد مع بني أبيه في محبسهم، على أن من صار الملك إليه منهم، يجيز الباقين إلى الأندلس، فلما بويع له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم، وأجازهم جميعا، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر، فأكرم نزلهم ووفر جرياتهم. وبلغ الخبر بذلك كله إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بنازة، فأخذه المقيم المقعد من فعلة ابن عمه، وقوضراجعا إلى دار الملك، وعسكر بكدية العرائس من ظاهرها، وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان، فاعتذر بأنه إنما امتثل وصيته، فاستشاط وتهدده، واتسع الخرق بينهما، وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل بجبل زرهون المطل علة مكناسة، وعسكر به، واشتملوا عليه، وزحف إليهم الوزير أبو بكر، وصعد الجبل، فقاتلوه وهزموه، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك. وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن، والاعتضاد به، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبد به لنفسه، فراسله محمد بن عثمان في ذلك، واستدعاه، واستمده، وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجو بينه وبين الوزير أبي بكر؛ لأنه سأله- وهو يحاصر تازى- في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع واتهمه بمداخلته، والميل له، فاعتزم على القبض عليه، ودس إليه بذلك بعض عيونه، فركب الليل، ولحق بأحياء الأحلاف من المعقل، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن، ومعهم علي بن عمر الويعلاني كبير بني ورتاجن، كان انتقض على الوزير ابن غازي، ولحق بالسوس، ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف، فنزل بينهم مقيما لدعوة الأمير عبد الرحمن. فجاءهم ونزمار مفلتا من حبالة الوزير أبي بكر،

وحرضهم على ما هم فيه، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم، ووزيره محمد بن عثمان، وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم، وخرج من تازي فلقيهم، ونزل بين أحيائهم، ورحلوا جميعا إلى إمداد السلطان أبي العباس، حتى انتهوا إلى صفوى. ثم اجتمعوا جميعا على وادي النجا، وتعاقدوا على شأنهم، وأصبحوا من الغد على التعبئة، كل من ناحيته.

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق، وولى منهزما، فانحجر بالبلد الجديد، وخيم القوم بكدية العرائس محاصرين له، وذلك أيا معيد الفطر من خمس وسبعين، فحاصروها ثلاثة أشهر، وأخذوا بمخنقها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه، فأذعن للصلح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمه، والبيعة له، وكان السلطان أبو العباس، والأمير عبد الرحمن، قد تعاهدوا- عند الاجتماع بوادي النجا- على التعاون والتناصر، على أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب، وأن للأمير عبد الرحمن بلدا سجلماسة ودرعة، والأعمال التي كانت لجده السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن، ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار، واشتط بطلب مراكش وأعمالها، فأغضوا له في ذلك، وشارطوه عليه حتى يتم لهم الفتح، فلما انعقد ما بين السلطان أبي العباس، والوزير أبي بكر، وخرج إليه من البلد الجديد، وخلع سلطانه الصبي المنصوب، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك، فاتح ست وسبعين، وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذ السير إلى مراكش، وبدا للسلطان أبي العباس، ووزيره محمد بن عثمان

في شأنه، فسرحوا العساكر في إتباعه، وانتهوا خلفه إلى وادي بهت، فواقفوه ساعة من نهار، ثم أحجموا عنه، وولوا على راياتهم وسار هو إلى مراكش، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماساي، بعد أن طلب منه الإجازة إلى الأندلس يتودع بها، فسرحه لذلك، وسار إلى مراكش فملكها.

وأما أنا فكنت مقيما بفاس، في ظل الدولة وعنايتها، منذ قدمت على الوزير سنة أربع وسبعين كما مر، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه، فلما جاء السلطان أبو العباس، والأمير عبد الرحمن، وعسكروا بكدية العرائس، وخرج أهل الدولة إليهم، من الفقهاء والكتاب، والجند، وأذن للناس جميعا في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك، فكنت أباكرهما معا. وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مر ذكره قبل هذا، فكان يظهر لي رعاية ذلك، ويكثر من المواعيد، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إلي ويستدعيني أكثر أوقاته يشاورني في أحواله؛ فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان، وأغرى سلطانه فقبض علي، وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك، وعلم أني إنما أوتيت من جراه، فحلف ليقوضن خيامه، وبعث وزيره مسعود بن ماساي لذلك، فأطلقوني من الغد، ثم كان افتراقهما لثالثه. ودخل السلطان أبو العباس دار الملك، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراكش وكنت أنا يومئذ مستوحشا، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزما على الإجازة إلى الأندلس من ساحل أسفي، معولا في ذلك على صحابة الوزير مسعود انثنى عزمي في ذلك؛ ولحقنا أبو نزمار بن عريف بمكانه من نواحي كر سيف لنقدمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس، صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس، واستأذنه في شأني، فأذن لي بعد مطاولة،

وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان، وسليمان بن داود بن أغراب، ورجال الدولة.

وكان الأخ يحيى لما رحل السلطان أبو حمو من تلمسان، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز فاستقر في خدمته، وبعده في خدمة ابنه محمد السعيد المنصوب مكانه. ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد، استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان، فأذن له، وقدم على السلطان أبي حمو، فأعاده إلى كتابة سره كما كان أول مرة، وأذن لي أنا بعده، فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدعة، إلى أن كان ما نذكر.

(13)

الإجازة ثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللحاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف

يواصل ابن خلدون سرد مذكراته فيقول:

ولما كان ما قصصته من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس، والذهاب مع الأمير عبد الرحمن، ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف، طلبا لوسيلته في انصرافي إلى الأندلس بقصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم، فتم ذلك، ووقع الإسعاف به بعد الامتناع، وأجزت إلى الأندلس في ربيع (سنة) ست وسبعين، ولقيني السلطان بالبر والكرامة وحسن النزل على عادته، وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر، من بعد ابن الخطيب، الفقيه أبا عبد الله بن زمزك، ذاهبا إلى فاس فر غرض التهنئة، وأجاز إلى سبته في أسطوله، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة، فلما وصل إلى فاس، وتحدث مع أهل الدولة في أجازتهم، تنكروا لذلك، وساءهم استقراري بالأندلس، واتهموا أني ربما أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن، الذي اتهموني بملابسته، ومنعوا أعلى من اللحاق بي، وخاطبوا السلطان ابن الأحمر في آن يرجعني إليهم، فأبى من ذلك، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان، وكان مسعود بن ماساي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس، فحملوه على مشافهة السلطان بذلك، وأبدوا له أني كنت ساعيا في خلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد

وظفرهم به، وبعث إلي ابن الخطيب من محبسه مستصرخا بي، ومتوسلا. فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزمار، وابن ماساي، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب بمحبسه، فلما قدم ابن ماساي على السلطان ابن الأحمر- وقد أغروه بي- فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب، فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتي إلى العدوة، ونزلت بهنين، والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم، بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاي كما مر. فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بها بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي، وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين، وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان أبي حمو أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم، فاستدعاني، وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه، ونكرته على نفسي، لما آثرته من التخلي والانقطاع، وأجبته إلى ذلك ظاهرا، وخرجت مسافرا من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس، ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول، فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياما حتى بعثوا عن أهلي وولدي من تلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة، في بلاد بني توجين التي صارت لهم بإقطاع السلطان، فأقمت بها أربعة أعوام، متخليا عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتحضت زبدتها، وتألفت نتائجها، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره.

(14)
الفيئة إلى السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها

يواصل ابن خلدون مذكراته فيقول:

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها. ثم طال مقامي هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته لي أخبار العرب والبربر وزناته، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقني مرض أوفى بي على الثنية، لولا ما تدارك من لطف الله، فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس، والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت، فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان، والاستحثاث للقدوم، فكان الخفوف للرحلة، فظعنت عن أولاده عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجون الميرة بمنداس. وارتحلنا في رجب سنة ثمانين، وسلكنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب. ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار، الضيعة التي اختطها بالزاب، فرحلتهم

معي إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة، ومعه صاحبها الأمير إبراهيم ابن السلطان أبي العباس بمخيمه، وفي عسكره فحضرت عنده، وقسم لي من بره، وكرامته فوق الرضى، وأذن لي في الدخول إلى قسطينة، وإقامة أهلي في كفالة 'إحسانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه. وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومهم، وسرنا إلى السلطان أبي العباس، و يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد، لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها، فوافيته بظاهر سوسة، فحيا وفادتي، وبر مقدمي، وبالغ في تأنيثي، وشاورني في مهمات أموره، ثم ردني إلى تونس، وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئة المنزل، والكفاية في الجراية، والعلوفة، وجزيل الإحسان، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة، وآويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت عن الأهل والولد، وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة، وألقيت عصا التسيار، وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريدة، وذهب فلهم في النواحي، ولحث زعيمهم يحيى بن لملول ببسكرة، ونزل على صهره ابن مزني، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده، فأنزل ابنه محمد المتصر بتورز، وجعل نفطة، ونفزاوة من أعماله، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة، وعاد إلى تونس مظفرا، ماهدا، فأقبل علي، واستدناني لمجالسته، والنجي في خلوته، فغص بطانته بذلك، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح، وكانوا يعكفون على إمام الجامع، وشيخ الفتيا، محمد بن عرفة، وكانت في قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا في المربى بمجالس الشيوخ، فكثيرا ما كان يظهر شفوفي عليه، وإن كان أسن مني، فاسودت تلك النكتة في

قلبه، ولم تفارقه. ولما قدمت تونس إنثال علي طلبة العلم من أصحابه وسواهم، يطلبون الإفادة والاشتغال، وأسعفتهم بذلك، فعظم عليه. وكان يسر التنفير إلى الكثير منهم فلم يقبلوا، واشتدت غيرته، ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه، فاتفقوا على شأنهم في التأليب علي، والسعاية بي، والسلطان حلال ذلك معرض عنهم في ذلك، وقد كلفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف والأخبار، واقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر، وزناته. وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلي منها، وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته، وكان مما يغرون به السلطان علي، قعودي عن امتداحه، فإني كنت قد أهملت الشعر وانتحاله جملة، وتفرغت للعلم فقط، فكانوا يقولون له إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك، لكثرة امتداحه للملوك قبلك، وتنسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم، فلما رفعت له الكتاب، وتوجته باسمه، أنشدته ذلك اليوم، هذه القصيدة أمتدحه، وأذكر سيره وفتوحاته، وأعتذر عن انتحال الشعر، وأستعطفه بهدية الكتاب، إليه، وهي هذه:

هل غير بابك للغريب مؤمل	أو عن جنابك للأماني معدل
هي همة بعثت إليك على النوى	عزما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع المنى	والغيث حيث العارض المتهلل
حيث القصور الزهرات منيفة	تعنى بها زهر النجوم وتحفل
حيث الخيام البيض يرفع للعلا	والمكرمات طرافها المتهدل
حيث الحمى للعز في ساحاته	ظل أفادته الوشيج الذبل
حيث الكرام ينوب عن نار القرى	عرف البكاء بحيهم والمندل

حيث الرماح يكاد يورق عودها — مما تعل من الدماء وتنهل

حيث الجياد أملهن بنو الوغى — مما أطالوا في المغار وأوغلوا

حيث الوجوه الغر قنعها الحيا — والبشر في صفحاتها يتهلل

حيث الملوك الصيد والنفر الألى — عز الجوار لديهم والمنزل

ويواصل ابن خلدون حديثه قائلا:

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات، وابن عرفة يزيد في إغرائهم متى اجتمعوا إليه، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه، ولقنوا النائب بتونس القائد فارح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامتي معه، خشية على أمره مني بزعمه، وتوطئوا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان، فشهد به في غيبة مني، ونكر السلطان عليهم ذلك، ثم بعث إلي وأمرني بالسفر معه، فسارعت إلى الامتثال، وقد شق ذلك علي، إلا أني لم أجد محيصا عنه، فخرجت معه، وانتهيت إلى تبسة، وسط تلول إفريقية، وكان منحدرا في عساكره وتواليفه من العرب إلى توزر، لأن ابن يملوك كان أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين، واستنقذها من يد ابنه، فسار السلطان إليه، وشرده عنها، وأعاد إليها ابنه وأولياءه. ولما نهض من تبسه، رجعني إلى تونس، فأقمت بضيعتي الرياحين من نواحيها لضم زروعي بها، إلى أن قفل السلطان ظافرا منصورا، فصحبته إلى تونس.

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين، أجمع السلطان الحركة إلى الزاب، بما كان صاحبه ابن مزني قد آوى ابن يملول إليه، ومهد له في جواره، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السفر قبلها.

وكانت بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعتهم وعروضهم، وهي مقلعة إلى الإسكندرية، فتطارحت على السلطان، وتوسلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي، فأذن لي في ذلك، وخرجت إلى المرسى، والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم.

فودعتهم، وركبت البحر منتصف شعبان من السنة، وقوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم، والله ولي الأمور سبحانه.

(15)
الرحلة إلى المشرق وولاية القضاء بمصر

يواصل ابن خلدون مذكراته فيقول:

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين، أقمنا في البحر نحوا من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر. ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون، وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهرا لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامدا، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر ألخوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سيحه ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثجه، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. وما زلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم، بالحديث عنه. سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالغرب، أبا عبد الله المقري، مقدمه من الحج سنة أربعين، فقلت له: كيف هذه

القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفة من السفارة عنه إلى ملوك مصر، وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم، سنة ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال:

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها، اتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون بذلك.

ولما دخلتها، أقمت أياما، وانثال علي طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرا، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

ثم كان الاتصال بالسلطان، فأبر اللقاء، وأنس الغربة، ووفر الجراية من صداقاته، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر، اغتباطا بعودي إليه، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه في تخلية سبيلهم، فخاطبه في ذلك بما نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم.

عبد الله ووليه أخوه برقوق.

السلطان الأعظم، المالك الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل،

المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، مولي الإحسان، مملك أصحاب التخوت والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك سبيل القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضهن القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد الله سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه- يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنصورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحد، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين، قدوة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكرين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة، ومعدلته تبوئه عرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا ورده وصفا برده، وثناء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده وجاد جده.

أما بعد حمد الله الذي جعل القلوب أجنادا مجندة، وأسباب الوداد على البعاد مؤكدة، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره الله بالرعب مسيرة شهو وأيده وأعلى به منار الدين وشيده، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤبدة. فإننا نوضح لعلمه الكريم، أن الله- وله الحمد- جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على

تعظيم العلم الشريف وأهله، ورفعة شأنه، ونشر أعلامه، ومحبة أهله وخدامه، وتيسير مقاصدهم وتحقيق أملهم، والإحسان إليهم، والتقرب إلى الله بذلك في السر في أرضه، لا سيما من رزقه الله الدراية فيما علمه من ذلك، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه: المجلس السامي، ألشيخي، الأجلي، ألكبيري، العالمي، ألفاضلي، الأثيلي، الأثيري، الإمامي، العلامي، القدوي، المقتدي، الفريدي، المحققي، الأصلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والملمين، جمال العلماء في العالمين، أوحد الفضلاء، قدرة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، خالصة الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام الله نعمته؛ فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدرا، وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل حببا إلينا، وتقربا (إلى) خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة، ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يجل عن الوصف ويربي على التعداد. يا له من غريب وصف ودار، أتى عنكم بكل غريب، وما برح- من حين ورد علينا- يبالغ في شكر الحضرة العلية ومدح صفاته الجميلة، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حبها، وآثرنا المكاتبة إليها.

«والأذن تعشق قبل العين أحيانا»

وذكرنا لنا في أثناء ذلك أن أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده، ويجتمع ليقيموا عنده، ويجتمع شمله بهم مخدة إقامته عندنا، فاقتضت آراؤنا الشريفة،

الكتابة إلى الحضرة العلية لهذين السببين الجميلين، وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك، ليكون على خاطره الكريم، والقصد من محبته، يقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه، وإزاحة أعذارهم، وإزالة عوائقهم، والوصية بهم، وتجهيزهم إليه مكرمين، محترمين، على أجمل الوجوه، صحبة قاصده الشيخ الصالح، العارف السالك الأوحد، سعد الدين مسعود المكناسي، الواصل بهذه المكاتبة أعزه الله، ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم، ورعايتهم، والتأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصل من بها من البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم، ويربي على أملهم، بحيث يهتم بذلك على ما عهد من محبته، وجميل اعتماده، مع ما يتخف به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته، بمنه ويمنه إن شاء الله.

كتب خامس عشر صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف. الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية بمصر، من وقف صلاح الدين بن أيوب، فولاني تدريسها مكانه، وبينا أنا في ذلك، إذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب، يدعى كل منهم قاضي القضاة، تمييزا عن الحكام بالنيابة عنهم، لاتساع خطة هذا المعمور، كل منهم قاضي القضاة، تمييزا عن الحكام بالنيابة عنهم، لاتساع خطة هذا المعمور، وكثرة عوالمه، وما

ارتفع من الخصومات في جوانبه، وكبير جماعتهم قاضي الشافعية، لعموم ولايته في الأعمال شرقا وغربا، وبالصعيد والفيوم، واستقلاله بالنظر في أموال الأيتام، والوصايا، ولقد يقال بأن مباشرة السلطان قديما بالولاية إنما كانت تكون له.

فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين، اختصني السلطان بهذه الولاية، تأهيلا لمكاني، وتنويها بذكرى، وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه، وخلع على بإيوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحة بين القصرين، فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزعني عنه جاه ولا سطوة، مسويا في ذلك بين الخصمين، آخذا بحق الضعيف من الحكمين، مغرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحا إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر، والطيب ملتبسا بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة، فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاء، والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب، ومؤلم النكال، وتأدى إلى العلم بالجرح في طائفة منهم، فمنعهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب لدواوين القضاة، والتوقيع في مجالسهم، قد دربوا على إملاء الدعاوى، وتسجيل الحكومات،

واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود، بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شفوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة بجاههم، يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعض منهم قلمه على العقود المحكمة، فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي، أو كتابي، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة، وخصوصا في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر بكثرة عوالمه، فأصبحت خافية الشهرة، مجهولة الأعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعا أو تمليكا شارطوه وأجابوه، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دونه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب، وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك.

فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم علي وأحقدهم، ثم التفت إلى الفتيا بالمذهب، وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة، لكثرة معارضتهم، وتلقينهم الخصوم، وفتياهم بعد نفوذ الحكم، وإذا فيهم أصاغر، بيناهم يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة ولا يكادون: إذا بهم طفروا إلى مراتب الفتيا والتدريس، فاقتعدوها، وتناولوها بالجزاف، واجتازوها من غير مترب ولا منتقد للأهلية ولا مرشح، إذ الكثرة فيهم بالغة، ومن كثرة الساكن مشتقة، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق، وعنانها مرسل، يتجاذب كل الخصوم منه رسنا، ويتناول من حافته شقا، يروم به الفلج على خصمه، ويستظهر به لإرغامه، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاه، وكفاء أمنيته، متتبعا إياه في شعاب الخلاف، فتتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم، والخلاف

في المذاهب كثير، والإنصاف متعذر، وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تمييزها للعامي، فلا يكاد هذا المدد ينحسر، ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق، وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب، يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن، قد اتخذوا الناس هزؤا، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض، ومآبنة للحرم، فأرغمهم ذلك مني، وملأهم حسدا وحقدا علي، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة، يشترون بها الجاه ليجيروا به على الله، وربما اضطر أهل الحقوق إلى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم يترخصون به للإصلاح، لا يزعهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجهل، فقطعت الحبل في أيديهم، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه، فلم يغنوا عنه من الله شيئا، وأصبحت زواياهم مهجورة، وبئرهم التي يمتاحون منها معطلة؛ وانطلقوا يراطنون السفهاء في النيل من عرضي، وسوء الأحدوثة عني بمختلق الأفك، وقول الزور، يبثونه في الناس، ويدرسون إلى السلطان التظلم مني فلا يصغي إليهم، وأنا في ذلك محتسب عند الله ما منيت به من هذه الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض على سبيل سواء من الصرامة، وقوة الشكيمة، وتحري المعدلة، وخلاص الحقوق، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت غليها، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لاسمها، ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة، فنكروه علي ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر، ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت،

بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود عيره، وهم يعملون أن قد تمالئوا عليه.

وليت شعري! ما عذرهم في الصور الظاهرة، إذا علموا خلافها، والنبي ﷺ يقول في ذلك: «من قضيت له من أخيه شيئا فإنما أقضى له من النار».

فأبيت في ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها، والوفاء لها، ولمن ينتدى بالتأفف مني عونا، وفي النكير علي أمة، وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحق، لاعتمادي على علمي في الجرح، وهي قضية إجماع، وانطلقت الألسنة، وارتفع الصخب، وأرادني بعض على الحكم بغرضهم فوقفت، وأغروا بي الخصوم فتنادوا بالتظلم عند السلطان، وجمع القضاء وأهل الفتيا في مجلس حفل للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمره للسلطان، وأمضيت فيها حكم الله إرغاما لهم، فغدوا على حرد قادرين، وعسوا الأولياء السلطان وعظماء الخاصة، يقبحون لهم إهمال جاههم، ورد شفاعتهم مموهين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلح، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إلي، تبعث الحليم، وتغري الرشيد، يستثيرون حفائظهم محلي ويشربونهم البغضاء لي، والله مجازيهم ومسائلهم.

فكثر الشغب علي من كان جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة. ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، اعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير

السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان- أيده الله- في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت- كما زعموا- مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها، فانطلقت حميد الأثر، مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال في بالعودة، ورتعت فيما كنت راتعا فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته، قانعا بالعافية التي سألها رسول الله ﷺ من ربه، عاكفا على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف، مؤملا من الله، قطع صبابة العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته.

(16)
السفر لقضاء الحج

يقول ابن خلدون:

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين، واعتزمت على قضاء الفريضة، فودعت السلطان والأمراء، وزودوا وأعانوا فوق الكفاية، وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين، إلى مرسى الطور بالجانب الشرقي من بحر السويس، وركبت البحر من هنالك، عاشر الفطر، ووصلنا إلى الينبع لشهر، فوافينا المحمل، ورافقتهم من هنالك إلى مكة، ودخلتها ثاني ذي الحجة، فقضيت الفريضة في هذه السنة، ثم عدت إلى الينبع، فأقمت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور، فاعترضتنا الرياح، فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الغربي، ونزلنا بساحل القصير، ثم بذرقنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص قاعدة الصعيد، فأرحنا بها أياما، ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا، ودخلتها في جمادي سنة تسعين، وقضيت حق السلطان في لقائه، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له، فتقبل ذلك مني بقبول حسن، وأقمت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه. وكنت لما نزلت بالينبع، لقيت بها الفقيه الأديب المتقن، أبا القاسم بن محمد ابن شيخ الجماعة، وفارس الأدباء، ومنفق سوق البلاغة، أبي إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف جده بالطويجن، وقد قدم حاجا، وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير

العالم، كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة، الحظي لديه، أبي عبد الله بن زمرك، خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوق، ويذكر بعهود الصحبة ووصلها بقوله: سيدي علم الأعلام، كبير رؤساء الإسلام، مشرف حملة السيوف والأقلام، جمال الخواص والظهراء، أثير الدول، خالصة الملوك، مجتبى الخلفاء، نير أفق العلاء، أوحد الفضلاء، قدوة العلماء، حجة البلغاء.

أبقاكم الله بقاء جميلا يعقد لواء الفخر، ويعلي منار الفضل، ويرفع عماد المجد، ويوضح معالم السوود، ويرسل أشعة السعادة، ويفيض أنوار الهداية، ويطلق ألسنة المحامد، وينشر أفق المعارف، ويعذب مواد العناية ويمتع بعمر النهاية ولا نهاية.

بأي التحيات أفاتحك وقدرك أعلى، ومطلع فضلك أوضح وأجلى، إن قلت تحية كسرى في السناء وتبع فأثر لا يقتفر ولا يتبع، تلك تحية عجماء لا تبين ولا تبين، وزمزمة نافرها اللسان العربي المبين، وهذه جهالة جهلاء، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الجفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء، وإن كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد، ولكن أين يقعان مما أريد.

تحية الإسلام أصل في الفخر نسبا، وأوصل بالشرع سببا، فالأولى أن أحييك بما حيا الله في كتابه رسله وأنبياءه، وحيت به ملائكته في جواره أولياءه فأقول:

سلام عليكم يرسل من رحمات الله غماما، ويفتق من الطروس، عن أزهار المحامد كماما، ويستصحب من البركات ما يكون على الذي أحسن من ذلك تماما، وأجدد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والدين،

المستمدة من أنوارها سرج المهتدين.

زادها الله صلاحا، وعرفها نجاحا يتبع فلاحا، وأقرر ما عندي من تعظيم أرتقي كل آونة شرفه. واعتقاد جميل يرفع عن وجه البدر كلفه، وثناء أنشر بيد الترك صحفه، وعلى ذلك أيها السيد المالك، فقد تشبعت علي في مخاطبتك المسالك، إن أخذت في تقرير فخرك العميم، وحسبك الصميم، فوالله ما ادري بأي ثنية للفخر يرفع العلم، وفي أي بحر من ثنائك يسبح القلم، الأمر جلل، «والشمس تكبر عن حلي وعن حلل»، وإن أخذت في شكاة الفراق، والاستمداد على الأشواق، اتسع المجال، وحصرت الروية والارتجال، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياح الأشواق، وأسلة اليراع، في مجال الرقاع، مسئولية على أمد الإبداع والاختراع: إنما هو بث يبكي، وفراق يشكي، فيعلم الله حرصي على أن أشافه عن أنبائك ثغور البروق البواسم، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم، وأن أجتلي غرر ذلك الجبين في محيا الشارق، ولمح البارق.

ولقد وجهت لم جملة من الكتب والقصائد. ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين الجواهر التي استأثر بهن البحر. قدس الله أرواحهم، وأعظم أجرك فيهم، فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتا، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع، وغدر وصونه بعد المسافة، والذي يطرق لي سوء الظن بذلك، ما صدر في مقابله منكم. فإني على علم من كرم قصدكم، وحسن عهدكم.

ومن حين استقل نيركم بذلك الأفق الشرقي، لم يصلني منكم كتاب، مع علمي بضياع اثنين منها بهذا الأفق الغربي. انتهى.

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، ويطلب مني رفعها إلى السلطان، وعرضها عليه بحسب الإمكان، وهي على روي الهمزة، ومطلعها:

أمدامع منهلة أم لؤلؤ

لما استهل العارض المتلألئ

وبعثها في طي الكتاب، واعتذر بأنه استناب في نسخها، فكتبت همزة رويها ألفا. قال وحقها أن تكتب بالواو، لأنها تبدل بالواو، وتسهل بين الهمزة والواو، وحرف الإطلاق أيضا يسوقها واوا. هذا مقتضى الصناعة، وإن قال بعض الشيوخ تكتب ألفا على كل حال، على لغة من لا يسهل، لكنه ليس بشيء.

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقي لتسهل قراءتها عليهم ففعلت ذلك، ورفعت النسخة والأصل للسلطان، وقرأها كاتب سره عليه، ولم يرجع إلي منها شيء، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان، فضاعت من يدي.

وكان في الكتاب فصل عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبد بأمر المغرب لذلك العهد، وما جاء به من الانتقاض عليهم، والكفران لصنيعهم، يقول فيه:

كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاما يتنبك النعيم، ويقود الدنيا، ويتخير العيش والجاه، قد أجيز صحبة ولد أبي عنان، كما تعرفتم من نسخة كتاب أنشأته بجبل الفتح لأهل الحضرة، فاستولى على المملكة، وحصل على الدنيا، وانفرد برياسة دار المغرب، لضعف السلطان رحمه الله، ولم يكن إلا أن كفرت الحقوق، وحنظلت نخلته

السحوق، وشف على سواد جلدته العقوق، وداخل من بسبتة، فانقضت طاعة أهلها. وظنوا أن القصبة لا تثبت لهم، وكان قائدها الشيخ البهمة، فل الحصار وحلي القتال، ومحش الحرب، أبو زكرياء بن شعيب، فثبت للصدمة، ونور للأندلس فبادره المدد من الجبل، ومن مالقة. وتوالت الأمداد، وخاف أهل البلد، وراجع شرفاؤه، ودخلوا القصبة. واستغاث أهل البلد بمن جاورهم وجاءهم المدد أضا. دخل الصالحون في رغبة هذا المقام، ورفع القتال. وفي أثناء ذلك غدروا ثانية، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة به، ويتوجه منها إلى المغرب، لرغبة (بني) مرين وغيرهم فيه، وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلدكم رياسة داره، وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره انتهى.

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتبا من مصر يقول فيه.

والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على الفاتحة، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل، لأني أثبت في تفسيرها ما أرجو النفع به عند الله. وقد أعلمتكم أن عندي التفسير الذي أوصله إلى المغرب عثمان التجاني من تأليف الطيبي، والسفر الأول من تفسير أبي حيان، وملخص إعرابه، وكتاب المغني لابن هشام وسمعت عن بدأة تفسير للإمام بهاء الدين بن عقيل، ووصلت إلي بدأة من كلام أكمل الدين الأثيري رضي الله عن جميعهم. ولكن لم يصل إلا للبسملة، وذكر أبو حبان في صدره تفسيره أن شيخه سليمان النقيب، أو أبو سليمان لا أدري الآن، صنف كتابا في البيان في سفرين، جعله مقدمة في كتاب تفسيره الكبير، فإن أمكن سيدي توجيهه. انتهى.

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعددة لا حاجة إلى ذكرها هنا. ثم ختم الكتاب بالسلام، وكتب اسمه: محمد بن يوسف بن زمرك الصريحي، وتاريخه العشرون من محرم تسع وثمانين.

وكتب إلي قاضي الجماعة بغرناطة، أبو الحسن علي بن الحسن البني الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله.

يا سيدي وواحدي ودا وحبا، ونجيء الروح بعدا وقربا. أبقاكم الله، وثوب سيادتكم سابغ، وقمر سعادتكم- كلما أفلت الأقمار- بازغ، أسلم بأتم السلام عليكم، وأقرر بعض ما لدي من الأشواق إليكم، من حضرة غرناطة- مهدها الله-، عن ذكر لكم يتضوع طيبه، وشكر لا يذوي- وإن طال الزمان- رطيبه، وقد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلدتم أمرها، وتحملتم مرها، فتمثلت لما قاله شيخنا أبو الحسن ابن الجياب، عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم عن خطة القضاء:

لا مرحبا بالناشز الفارك ... إذ جهلت رفعة مقدارك

لو أنها قد أوتيت رشدها ... ما برحت تعشو إلى نارك

ثم تعرفت كيفية انفصالكم، وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيد هنا لكم، فرددت- وقد توهمت مشاهدتكم- هذه الأبيات:

لك الله يا بدر السماحة والبشر ... لقد حزت في الأحكام منزلة الفخر

ولكنك استعفيت عنها تورعا ... وتلك سبيل الصالحين كما تدري

جريت على نهج السلامة في الذي ... تخيرته أبشر بأمنك في الحشر

وحقق بأن العلم ولاك خطة ... من العز لا تنفك عنها مدى العمر

تزيد على مر الجديدين جدة ... وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري

ومن لاحظ الأحوال وارن بينها ولم ير للدنيا الدنية من خطر

وأمسى لأنواع الولايات نابذا فغير نكير أن تواجه بالنكر

فيهنيك الذي أنت أهله من الزهد فيها والتوقي من الوزر

ولا تكترث من حاسديك فإنهم حصى والحصى لا يرتقي مرتقى البدر

ومن عامل الأقوام بالله مخلصا

له منهم نال الجزيل من الأجر

بقيت لربع الفضل تحمي ذماره

وخار لك الرحمن في كل ما تجري

أيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأطنبتم في كتابكم في الثناء على السلطان الذي أنعم بالإبقاء، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء، واستوهبتم الدعاء له ممن هنا من الأولياء، ولله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم، فالدعاء له من الواجب، إذ فيه استقامة الأمور، وصلاح الخاصة والجمهور، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلماء والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء. أجاب الله فيكم أحسنه وأجمله، وبلغ كل واحد منكم ما قصده وآمله. وأنتم أيضا من أنتم من أهل العلم والجلالة، والفضل والأصالة، وقد بلغتم بهذه البلاد الغاية من التنويه، والحظ الشريف النبيه، لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد المعظمة ظهور، وتحدث بعد الأمور أمور؛ وبكل اعتبار، فالزمان بكم- حيث كنتم- مباه، والمحامد مجموعة لكم تناه. ولما وقف على مكتوبكم إلي مولانا السلطان أبو عبد الله، أطال الثناء على مقاصدكم، وتحقق صحيح ودادكم، وجميل اعتقادكم، وعمر

مجلسه يومئذ بالثناء عليكم، والشكر لما لديكم.

ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن مؤرخا بصفر تسعين. وفي طيه بخطه، (وفد قصر فيها عن الإجادة) نصها:

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأظفر يمناكم بنوائب مناكم.

أعتذر لكم عن الكتاب المدرج هذا طيه بغير خطي، فإني في الوقت بحال مرض من يعني، ولكن العافية الواقية، فيسعني سمحكم، وربما أن لديكم نشوقا لما نزل في هذه المدة بالمغرب من الهرج حاطه الله، وأمن جميع بلاد المسلمين.

والموجب أن الحصة الموجهة لتلك البلاد في خدمة أميرهم الواثق، ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكها رهينة، وجعلهم في القيود إلى أن يقع الخروج لهم عن مدينة سبتة. وكان القائد على هذه الحصة العلج المسمى مهند، وصاحبه الفتى المدعو نصر الله. وكثر التردد في القضية، إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العباس- تولاه الله- صحبة فرج بن رضوان بحصة ثانية، وكان ما كان، حسبما تلقيتم من الركبان، هذا ما وسع الوقت من الكلام. ثم دعا، وختم.

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا التعريف بالمؤلف، لأن فيها تحقيقا لهذه الواقعات، وهي مذكورة في أماكنها من الكتاب، فربما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضع.

وبعد قضاء الفريضة، رجعت إلى القاهرة محفوفا بستر الله ولطفه ولقيت السلطان فتلقاني- أيده الله- بمعهود مبرته وعنايته. وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين. ولحقت السلطان النكبة التي محصه الله فيها وأقاله، وجعل إلى الخير فيها عاقبته ومآله، ثم أعاده

إلى كرسيه للنظر في مصالح عباده، فطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته، ولزمت كسر البيت متمتعا بالعافية، لابسا برد العزلة، عاطفا على قراءة العلم وتدريسه، لهذا العهد فاتح سبع وتسعين.

فهرس المحتويات